مغامرات السندباد

ARABCOMICS.NET

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة : لايجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٤ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٥٢-٩

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

المغامرات المثيرة

مُغَامَرات السِّنْدِبَاد البَحْرِي

إعداد : حَامِد عَلي عَطَاري
رُسُوم : دُوغلاس پوسْت
غلاف : حَسَن عَبد السَّتار

مَكتبَة لبنَان
بَيروت

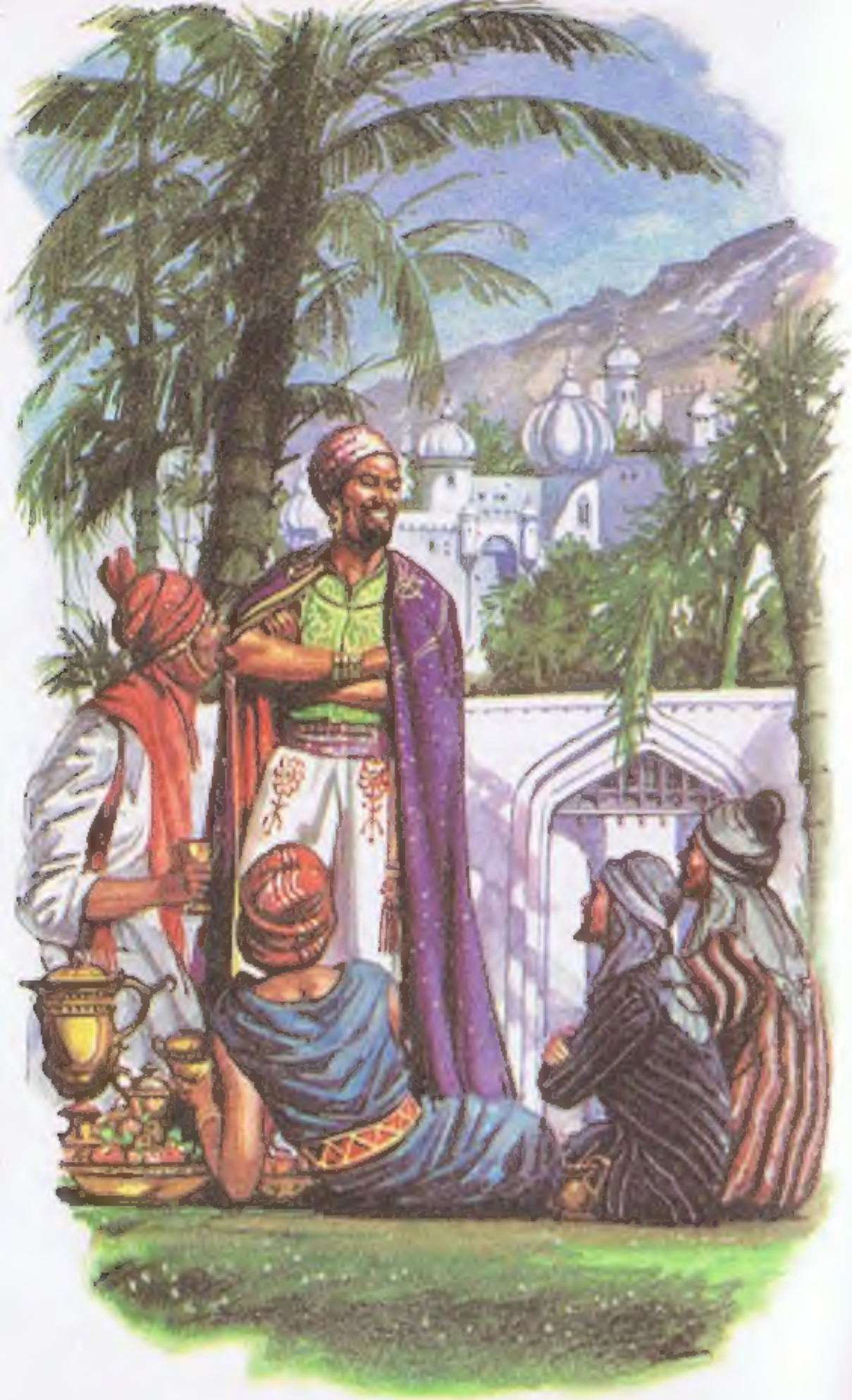

الرِّحلةُ الأُولى

عاشَ السِّنْدِبادُ البَحْريُّ بِمَدينةِ بَغْدادَ ، في عَهْدِ الخَليفةِ هارونَ الرَّشيدِ . وَكانَ واسِعَ الثَّراءِ ، يُقيمُ في بَيتٍ فَخْمٍ في أَرْقى حَيٍّ مِنْ أَحْياءِ العاصِمةِ . وَكانَتْ تُحيطُ بِبَيْتِهِ حَديقةٌ رَحْبةٌ غَنّاءُ ، أَشْجارُها باسِقةٌ ، وَرَياحِينُها فائِحةٌ . وَكَثيرًا ما كانَ يَجْلِسُ هوَ وَأَصْدِقاؤُهُ في ظِلالِ أَشْجارِ تِلْكَ الحَديقةِ كُلَّما اشْتَدَّتْ حَرارةُ الجَوِّ . وَها نَحْنُ نُوردُ قِصَّةَ المُغامَراتِ بِلِسانِ صاحِبِها ، يَرْويها لِأَصْدِقائِهِ . لِنَسْتَمِعْ إِلَيْهِ :

« إِنِّي تَرِيَّ الآنَ ، وَلٰكِنِّي لَمْ أَكُنْ كَذٰلِكَ دائِمًا ؛ بَلْ جاءَ عَلَيَّ وَقْتٌ كُنْتُ فيهِ فَقيرًا جِدًّا ، لا أَعْرِفُ لِلسَّعادةِ مَعْنًى . وَفي رِحْلَتي الأُولى صادَفْتُ الأَهْوالَ ، وَاحْتَمَلْتُ المَشَقّاتِ ، وَانْتابَتْني المَخاوِفُ . وَإِلَيْكُمْ قِصَّةَ الرِّحْلةِ الأُولى . »

كُنْتُ آنَذاكَ شابًّا طائِشًا ، شَأْنَ أَمْثالي مِنَ الشَّبابِ الَّذينَ يُبَدِّدونَ المالَ وَالوَقْتَ هَباءً . وَلَمَّا ساءَتْ بي الأَحْوالُ ، أَقْنَعْتُ نَفْسي بِضَرورةِ العَمَلِ لِلْحُصولِ عَلى المالِ . وَلِتَحْقيقِ ذٰلِكَ بِعْتُ بَيْتي وَما أَمْلِكُ لِقاءَ ثَلاثَةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، اشْتَرَيْتُ بِها أَنْفَسَ المَلْبوساتِ وَأَغْلى البَضائِعِ ، وَحَمَلْتُها إِلى البَصْرةِ . وَفي البَصْرةِ الْتَقَيْتُ رُبّانَ سَفينةٍ ، وَتَبادَلْتُ وَإِيّاهُ الحَديثَ .

وَمِمّا قالَهُ لي : « سَتُقْلِعُ ٱلسَّفينةُ ٱلأُسْبوعَ ٱلقادِمَ ، وَعَلَيْها سِتَّةٌ مِنَ ٱلتُّجّارِ وَبَضائِعُهُمْ . وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى بِلادِ ٱلشَّرْقِ ٱلأَقْصى وَجُزُرِهِ ، حَيْثُ يَبيعُ ٱلتُّجّارُ بِضاعَتَهُمْ ، وَيَبْتاعُونَ ٱلجَواهِرَ وَنَفائِسَ ٱلشَّرْقِ لِيَبيعُوها في بِلادِهِمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنْ رِحْلَتِهِمْ . »

لَمّا ٱنْتَهى ٱلرُّبّانُ مِنْ كَلامِهِ ، سَأَلْتُهُ : « هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَأْخُذَ عَلى سَفينَتِكَ تاجِرًا آخَرَ ؟ لَيْسَ لَدَيَّ إلّا بِضْعَةُ صَناديقَ ، وَسَأَدْفَعُ لَكَ نَصيبَكَ مِمّا سَأَنالُهُ مِنْ أَرْباحٍ . » فَوافَقَ ٱلرُّبّانُ عَلى ذٰلِكَ .

في ٱلأُسْبوعِ ٱلتّالي ، أَبْحَرَتِ ٱلسَّفينةُ في شَطِّ ٱلعَرَبِ ، ثُمَّ عَبَرَتِ ٱلخَليجَ ٱلعَرَبِيَّ إلى ٱلمُحيطِ ٱلهِنْدِيِّ . وَطالَ سَيْرُنا في ٱلبَحْرِ أَيّامًا بِلَياليها . وَكُنّا نَتَوَقَّفُ في بَعْضِ ٱلمَوانِئِ وَٱلجُزُرِ فَنُقايِضُ عَلى بَضائِعِنا . وَذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتِ ٱلسَّفينةُ عَلى شاطِئِ جَزيرَةٍ غَنّاءَ . وَكانَ ٱلرُّبّانُ يَأْمُلُ أَنْ يَحْصُلَ عَلى ٱلماءِ ٱلعَذْبِ مِنْها ، وَلِهٰذا أَرْسى سَفينَتَهُ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ ٱليابِسَةِ . وَقَصَدَ ٱلكَثيرونَ مِنّا ٱلشّاطِئَ بَحْثًا عَنِ ٱلماءِ ٱلعَذْبِ ، وَرَغْبَةً في ٱلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ ٱلجَزيرَةِ . وَقَدْ حَمَلَ ٱلبَحّارَةُ قُدورَ ٱلماءِ ٱلكَبيرَةَ لِمَلْئِها ، عَلى حينَ أَخَذْتُ أَجُولُ في ٱلجَزيرَةِ وَأَتَمَتَّعُ بِمَناظِرِها . وَقَدْ خَلا لِبَعْضِ ٱلبَحّارَةِ وَٱلتُّجّارِ أَنْ يَجْمَعوا ٱلحَطَبَ وَيُشْعِلوا نارًا .

الجَزيرَةُ تَتَحَرَّكُ

حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْئانِ في وَقْتٍ واحِدٍ ، أَوَّلُهُما : تَحَرُّكُ ٱلجَزيرَةِ مِنْ

تَحْتِنا ، وَثانيهُما : صُراخُ ٱلرُّبّانِ يَدْعونا لِلنَّجاةِ بِأَنْفُسِنا وَٱلعَوْدَةِ إلى ٱلسَّفينَةِ . صاحَ : « إنَّ ٱلأَرْضَ ٱلَّتي تَقِفُونَ عَلَيْها لَيْسَتْ جَزيرَةً ، وَإِنَّما هِيَ حُوتٌ عَظيمٌ يَنامُ فَوْقَ سَطْحِ ٱلماءِ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَنَمَتْ عَلَيْهِ ٱلنَّباتاتُ ، لٰكِنَّ نارَكُمْ أَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمِهِ . ٱلهَرَبَ ! ٱلهَرَبَ ! قَبْلَ أَنْ يَغوصَ بِكُمُ ٱلحُوتُ في أَعْماقِ ٱلبَحْرِ . »

فَلَمّا سَمِعْنا ما قالَهُ ٱلرُّبّانُ ، أَسْرَعْنا طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ عَلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ ٱللَّحاقَ بِالسَّفينَةِ قَبْلَ إقْلاعِها . وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ ، حَتّى أَخَذَتِ ٱلجَزيرَةُ تَغوصُ في ٱلأَعْماقِ . ثُمَّ هَبَّتْ رِياحٌ عاتِيَةٌ عَصَفَتْ

بِالسَّفِينةِ بَعيدًا ، وَوَجَدْتُ نَفْسي في صِراعٍ مَعَ الأَمْواجِ ، أُصْعَدُ إلى سَطْحِ الماءِ ، وَأُغوصُ ثانِيةً . وَاخْتَفَتِ السَّفينةُ عَنْ ناظِرَيَّ ، وَانْقَطَعَ بِذٰلِكَ آخِرُ خَيْطٍ مِنَ الأَمَلِ ؛ بَلْ تَوَقَّعْتُ المَوْتَ في ذٰلِكَ البَحْرِ المُتَلاطِمِ الأَمْواجِ .

قِدْرُ الماءِ

لٰكِنَّ العِنايَةَ الرَّبّانِيَّةَ الَّتي لا تُغْفَلُ وَلا تَنامُ ، ساقَتْ إلَيَّ قِدْرًا فارِغَةً ، فَاخْتَضَنْتُها بِذِراعَيَّ ، وَنَجَوْتُ مِنَ الغَرَقِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اليَسيرِ عَلَيَّ أَنْ أَبْقى مُحْتَضِنًا القِدْرَ ، عَلى حِينِ تَلْعَبُ بِيَ الأَمْواجُ كَيْفَ شاءَتْ ، تَقْذِفُ بي هُنا ، ثُمَّ تَعودُ فَتَقْذِفُ بي هُناكَ ، وَأَنا لا حَوْلَ لي وَلا قُوَّةَ. وَبَقيتُ عَلى هٰذِهِ الحالِ اللَّيْلَ بِطُولِهِ وَنَهارَ اليَوْمِ التّالي وَلَيْلَتَهُ . وَما إنْ طَلَعَ الصَّباحُ ، حَتّى تَطَلَّعْتُ حَوْلي وَقُلْتُ : « الوَداعَ يادُنْيا ! إنَّهُ آخِرُ يَوْمٍ في حَياتي . فَأَنا مَريضٌ تَصَلَّبَتْ أَصابِعي مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ ، وَتَكادُ ذِراعَيَّ أَنْ تَتَصَلَّبا أَيْضًا ، وَلَنْ يَطولَ تَشَبُّثي بِالقِدْرِ ، وَبَعْدَها سَأَهْبِطُ إلى قاعِ البَحْرِ إلى الأَبَدِ . »

اليابِسَةُ

وَسْطَ هٰذا اليَأْسِ لاحَ الفَرَجُ ؛ إذْ رَأَيْتُ اليابِسَةَ . وَهَبَّتِ الرِّيحُ وَدَفَعَتْني وَقِدْرَ الماءِ إلى الشّاطِئِ تَحْتَ شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ . أَمّا ماذا حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَلا أَدْري . وَكُلُّ ما أَعْرِفُهُ أَنّي أَصْبَحْتُ عاجِزًا عَنِ الحَرَكَةِ لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ . كُنْتُ خائِرَ القُوَى مِنَ الجُوعِ وَالعَطَشِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ النُّهوضَ عَلى قَدَمَيَّ . نَظَرْتُ إلى قَدَمَيَّ فَلاحَظْتُ آثارَ نَهْشِ السَّمَكِ في لَحْمي ظاهِرَةً لِلْعِيانِ ، فَقُلْتُ

لِنَفْسي : « لا تَبْتَئِسْ يا سِنْدِبادُ ! سَتُشْفى قَدَماكَ . إنَّ غَسْلَهُما بِالماءِ النَّظيفِ العَذْبِ ضَرُورِيٌّ ، لِذا يَجِبُ البَحْثُ عَنْهُ . »

أَخَذْتُ أَزْحَفُ عَلى الأَرْضِ مُسْتَعينًا بِذِراعَيَّ حَتّى بَلَغْتُ شَجَرَةَ فاكِهَةٍ عَلى ضِفَّةِ نَهيرٍ . وَبَقيتُ تَحْتَها أَيّامًا أَقْتاتُ ثِمارَها وَأَشْرَبُ مِنْ مِياهِ النَّهيرِ ، إلى أَنْ تَحَسَّنَتْ حالُ قَدَمَيَّ ، وَاسْتَعَدْتُ شَيْئًا مِنْ قُوايَ . وَأَحْسَسْتُ بِأَنَّهُ قَدْ آنَ الأَوانُ لِمُغادَرَةِ المَكانِ ، فَتَزَوَّدْتُ بِبَعْضِ الفاكِهَةِ دُونَ الماءِ لِعَدَمِ قُدْرَتي عَلى حَمْلِهِ ، عَلى أَمَلِ العُثورِ عَلى أَنْهارٍ أُخْرى في طَريقي . وَلٰكِنْ خابَتْ ظُنوني وَانْهارَتْ آمالي ، إذْ لَمْ أُصادِفْ في طَريقي ماءً لِلشُّرْبِ أَوْ أَشْجارَ فاكِهَةٍ .

سِرْتُ عَلى شاطِئِ البَحْرِ دُونَ أَنْ تَلْمَحَ عَيْنايَ ما يَدُلُّ عَلى وُجودِ بَشَرٍ إطْلاقًا . وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ ثَلاثَةَ أَيّامٍ أَمْشي عَلى غَيرِ هُدًى ، وَأَعيشُ عَلى بَقِيَّةٍ مِنَ الأَمَلِ ، بَدَأَ الخَوْفُ يَدِبُّ في أَوْصالي ، وَيَمْلِكُ عَلَيَّ مَشاعِري ، فَرُحْتُ أُخاطِبُ نَفْسي : « يالَتْرى ، هَلْ أَنا الوَحيدُ في هٰذِهِ الجَزيرَةِ ؟ أَما مِنْ حَيَوانٍ أَوْ طَيرٍ أَوْ إنْسانٍ هُنا ؟ ما الَّذي أَراهُ هُناكَ ؟ »

الحِصانُ

أَخَذْتُ أُنْعِمُ النَّظَرَ فيما لاحَ لي مِنْ بَعيدٍ ، وَإذا بِهِ حِصانٌ . رُدَّتْ رُوحي إلَيَّ ، وَعاوَدَني الأَمَلُ في الحَياةِ ، فَأَسْرَعْتُ الخُطى صَوْبَ الحِصانِ . وَكانَ ، وَالحَقُّ يُقالُ ، في غايَةِ الجَمالِ وَالرَّشاقَةِ . فَقُلْتُ في نَفْسي : « إنَّ حِصانًا كَهٰذا لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِمَلِكٍ أَوْ لِرَجُلٍ ثَرِيٍّ . »

وَما إنِ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ كَهْفٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ رَجُلٌ أَخَذَ يَجْري بِسُرْعَةٍ ، مُشْهِرًا سَيْفَهُ ، ثُمَّ صَرَخَ فَيَّ قائِلًا : « كُلُّ مَنْ يَمَسُّ حِصانَ المَلِكِ المَوْتُ مَصيرُهُ . »

قُلْتُ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « لا تَقْتُلْني أَيُّها الرَّجُلُ ! ما كُنْتُ أَقْصِدُ إلّا رُؤْيَةَ هٰذا الحِصانِ الجَميلِ ، فَهَلْ هُوَ لَكَ ؟ »

فَرَدَّ عَلَيَّ الرَّجُلُ مُتَسائِلًا : « قُلْ لِيَ مَنْ أَنْتَ ؟ وَما الَّذي جاءَ بِكَ إلى هٰذا المَكانِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ الغَرَقِ بِوَساطَةِ قِدْرِ ماءٍ . » وَرَوَيْتُ لَهُ حِكايَتي مِنْ أَوَّلِها إلى آخِرِها .

وَما إنْ سَمِعَ حِكايَتي المُؤْلِمَةَ ، حَتَّى أَخَذَني مِنْ يَدي ، وَسارَ بي إلى الكَهْفِ ، وَقَدَّمَ لي الطَّعامَ وَالماءَ . وَأَخَذَ يُسَرِّي عَنّي هُمُومِيَ قائِلًا : « حَقًّا إنَّ العِنايَةَ الإلٰهِيَّةَ شَمِلَتْكَ ، فَكَتَبَتْ لَكَ الحَياةَ . إنّي وَزُمَلائي مِنْ خُدّامِ المَلِكِ نَأْتي في كُلِّ عامٍ مَرَّةً إلى هٰذا المَكانِ مِنَ الجَزيرَةِ ، وَنَقْضي فيهِ أُسْبوعًا وَمَعَنا أَحْسَنُ جِيادِ المَلِكِ . فَهَواءُ الجَزيرَةِ عَليلٌ يُنْعِشُ الجِيادَ وَيُكْسِبُها الصِّحَّةَ وَالعافِيَةَ . وَلٰكِنَّ الجَزيرَةَ تَفْتَقِرُ إلى الطَّعامِ وَالماءِ لِبُعْدِها عَنِ الأَماكِنِ المَأْهولَةِ بِالسُّكّانِ ، وَلِتَعَذُّرِ الوُصولِ إلَيْها دُونَ دَليلٍ . وَلِهٰذا سَنَصْطَحِبُكَ مَعَنا غَدًا في طَريقِ عَوْدَتِنا . »

المَلِكُ المِهْرجانُ

لَمْ يَمُرَّ مِنَ الوَقْتِ إلّا قَليلُهُ ، حَتَّى حَضَرَ زُمَلاؤُهُ فَوْقَ جِيادِ المَلِكِ الرَّشيقَةِ ، وَرافَقْتُهُمْ في عَوْدَتِهِمْ . وَفي الطَّريقِ حَدَّثوني كَثيرًا عَنْ مَلِكِهِمْ ، وَمِمّا قالوهُ : « إنَّ المَلِكَ المِهْرجانَ أَعْظَمُ مَلِكٍ في البِلادِ ، وَالشَّعْبُ يُوليهِ صادِقَ وَلائِهِ وَعَظيمَ حُبِّهِ ، لِما يَعْرِفُ عَنْهُ مِنْ كَرَمِ الخُلُقِ ، وَطيبِ السَّريرَةِ ، وَإعْطاءِ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ وَلِأَنَّهُ لا يَخافُ في الحَقِّ لَوْمَةَ لائِمٍ . وَيَقْصِدُ مَدينَتَنا العَظيمَةَ تُجّارٌ مِنْ مَخْتَلِفِ بِقاعِ الأَرْضِ ، فَيَلْقَوْنَ كُلَّ رِعايَةٍ وَحُسْنَ مُعامَلَةٍ . »

وَبِمُجَرَّدِ وُصولِنا إلى المَدينَةِ ، أَسْرَعوا إلى المَلِكِ ، وَأَنْبَأوهُ بِشَأْني . فَما كانَ مِنْهُ إلّا أَنِ اسْتَدْعاني ، وَاسْتَمَعَ إلى تَفاصيلِ قِصَّتي بِكُلِّ اهْتِمامٍ . ثُمَّ عَقَّبَ عَلى كَلامي بِقَوْلِهِ : « لَقَدْ كانَ الحَظُّ حَليفَكَ . »

وَأَمَرَ خَدَمَهُ بِتَوْفيرِ ما أَحْتاجُ إلَيْهِ بَعْدَ أَنْ شَمِلَني بِرِعايَتِهِ . وَكانَ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ يَسْتَدْعيني إلى دِيوانِهِ ، وَكُنْتُ أُجيدُ الحَديثَ بِعَدَدٍ مِنَ اللُّغاتِ ، فَاسْتَعانَ بِيَ المَلِكُ في الاهْتِمامِ بِشُؤونِ التُّجّارِ وَالبَحّارَةِ الَّذينَ كانوا يَزورونَ مَمْلَكَتَهُ ، ثُمَّ إخْطارِهِ بِما يَحْمِلونَ مِنْ بَضائِعَ أَوْ بِما يَشْتَرونَهُ مِنْ مَمْلَكَتِهِ . وَقَدْ دَأَبْتُ عَلى سُؤالِ رَبابِنَةِ السُّفُنِ عَنْ رِحْلاتِهِمْ ، وَعَمَّا إذا كانوا يَعْرِفونَ بَغْدادَ .

رُبّانُ السَّفينةِ

ذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتْ في المِيناءِ سَفِينةٌ كَبيرةٌ ، وَبَدأَ التُّجّارُ القادِمونَ عَلَيْها في إنْزالِ بَضائِعِهِمْ ، وَأَخَذُوا يَبيعُونَ وَيَشْتَرونَ وَيُقايِضونَ . فَاقْتَرَبْتُ مِنَ الرُّبّانِ وَسَأَلْتُهُ : « أَمَا مِنْ بَضائِعَ أُخْرى في السَّفينةِ ؟ »

كانَ جَوابُهُ : « في السَّفينةِ بِضْعَةُ صَناديقَ لِتاجِرٍ شابٍّ بَدَأَ رِحْلَتَهُ مَعَنا ، وَلٰكِنَّهُ ماتَ غَرَقًا . وَسَأَقومُ بِبَيْعِ بِضاعَتِهِ وَتَسْليمِ ثَمَنِها إلى أَهْلِهِ في بَغْدادَ العَظيمةِ .

تَفَرَّسْتُ في وَجْهِهِ ، فَعَرَفْتُهُ . وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ لَكَ أَنْ تَذْكُرَ لِيَ اسْمَهُ ؟ »

أَجابَني : « إنَّ اسْمَهُ السِّنْدِبادُ . »

وَما إنْ سَمِعْتُ اسْمِيَ حَتّى كادَ أَنْ يُغْشى عَلَيَّ ، فَصَرَخْتُ بِأَعْلى صَوْتي : « أَيُّها الرُّبّانُ ! أَنا السِّنْدِبادُ ، وَهٰذِهِ بِضاعَتي ، وَإِنّي لَأَشْكُرُكَ عَلى احْتِفاظِكَ بِها ! »

وَلَمْ يَسَعِ الرُّبّانُ إلّا أَنْ يَسْتَنْكِرَ قَوْلِيَ وَيَصيحَ : « كَيْفَ لي أَنْ أُصَدِّقَكَ ؟ صَحيحٌ أَنَّ وَجْهَكَ يَنِمُّ عَنِ الطِّيبَةِ وَالصَّلاحِ ، وَلٰكِنَّكَ تَدَّعي أَنَّكَ السِّنْدِبادُ لِتَسْتَوليَ عَلى البَضائِعِ دُونَ وَجْهِ حَقٍّ . لَقَدْ رَأَيْتُ السِّنْدِبادَ بِعَيْنَيَّ وَالماءُ يَبْتَلِعُهُ ، كَما رَآهُ البَحّارةُ وَالتُّجّارُ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ ، عِنْدَما كانَ المَوْتُ يَطْويهِ بَيْنَ أَمْواجِ البَحْرِ . كَفاكَ ادِّعاءً ، فَأَنْتَ لَسْتَ السِّنْدِبادَ . »

وَلَمّا زادَتْ حِدَّةُ المَوْقِفِ بَيْنَنا ، قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها الرُّبّانُ ! أَرْجو أَنْ

تَسْتَمِعَ إِلَيَّ ، وَتُنْصِتَ إلى حِكايَتي ، وَأَتْرُكَ لَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْرَ تَصْديقي أَو تَكْذيبي . »

وَأَخَذْتُ أَحْكي لَهُ حِكايَتي مُنْذُ أَنْ قابَلْتُهُ في البَصْرَةِ ، وَذَكَّرْتُهُ بِأَشْياءَ خاصَّةٍ جَرَتْ بَيْنَنا تَقومُ دَليلًا عَلى صِدْقِ قَوْلي . حِيْنَذاكَ اقْتَنَعَ الرُّبّانُ بِما قُلْتُهُ ، وَأَظْهَرَ التُّجّارُ فَرْحَتَهُمْ بِنَجاتي وَهَنَّأُوني بِالسَّلامةِ .

هَديَّةُ المَلِكِ

قامَ الرُّبّانُ بِتَسْليمي بَضائِعي فَاخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِها أَغْلاها لِتَكونَ هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ ، وَحَمَلَها البَحّارةُ وَوَضَعُوها بَيْنَ يَدَيْهِ . وَما إنْ رَآها حَتّى قالَ لي : « ما هٰذا الَّذي أَراهُ ؟ لَقَدْ جِئْتَنا خالِيَ الوِفاضِ ، وَلٰكِنّي أَراكَ الآنَ تُقَدِّمُ لي هَدِيَّةً ثَمينةً ، فَكَيْفَ حَدَثَ هٰذا ؟ »

أَعَدْتُ عَلى مَسامِعِ المَلِكِ قِصَّةَ السَّفينةِ وَما جَرى لي . وَلَمْ يَسَعِ المَلِكُ إلّا أَنْ يُقَدِّمَ لي هَدِيَّةً أَثْمَنَ مِنْ هَدِيَّتي لَهُ .

العَوْدَةُ إلى بَغْدادَ

عِنْدَما شَرَعَتِ السَّفينةُ تَأْخُذُ أُهْبَتَها لِلإبْحارِ ، ذَهَبْتُ إلى المَلِكِ وَقُلْتُ لَهُ : « يُحْزِنُني يامَوْلايَ أَنْ أُغادِرَ بَلَدَكَ الجَميلَ ، وَأُحْرَمَ مِنْ رُؤْيَةِ مَلِكٍ عَظيمٍ ، عَطَفَ عَلَيَّ ، وَشَمِلَني بِرِعايَتِهِ ؛ فَأَنا يامَوْلايَ أَحِنُّ إلى مَدينَتي وَمَسْقَطِ رَأْسي ، بَغْدادَ العَظيمةِ . »

وَافَقَ المَلِكُ عَلى رَحيلي قائِلًا : « لَقَدْ صَدَقْتَ فيما قُلْتَ ، وَالواجِبُ

يَدْعُوكَ إلى ٱلعَوْدةِ إلى بَلَدِكَ . لَقَدْ كُنْتَ بَيْنَنا نِعْمَ ٱلصَّديقُ ٱلَّذي نَعْتَزُّ بِصَداقَتِهِ ، فَقَدْ قَدَّمْتَ إلى بَلَدي أَجَلَّ ٱلخِدْماتِ وَأَصْدَقَها . رافَقَتْكَ ٱلسَّلامَةُ ، وَلَكَ شُكْري وَتَقْديري . »

ثُمَّ أَمَرَ خَدَمَهُ أَنْ يَحْمِلوا لِي ٱلهَدايا ٱلثَّمينةَ مِنْ ذَهَبٍ وَجَواهِرَ وَمَلابِسَ فاخِرةٍ وَغَيْرِها مِمَّا لا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ . وَبَعْدَ رِحْلةٍ طَويلةٍ رَسَتْ بِنا ٱلسَّفينةُ في ميناءِ ٱلبَصْرةِ ، وَمِنْها سافَرْتُ بَرًّا إلى بَغْدادَ . وَقَدْ فَرِحَ أَصْدِقائي بِعَوْدَتي ، وَٱشْتَرَيْتُ لِنَفْسي بَيْتًا فَخْمًا ، عِشْتُ فِيهِ عِدَّةَ سَنَواتٍ في جَوٍّ مِنَ ٱلسَّعادةِ وَٱلرَّفاهِيةِ . وَغَدًا إِنْ شاءَ ٱللهُ سَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ ٱلرِّحْلةِ ٱلثَّانيةِ .

ٱلرِّحْلـةُ ٱلثَّانيـةُ

عِنْدَما عُدْتُ مِنْ رِحْلَتي ٱلأُولى ، قَرَّرْتُ أَنْ أَقْضِيَ بَقِيَّةَ عُمْري في بَغْدادَ . فَقَدْ رَزَقَنِي ٱللهُ ٱلخَيْرَ ٱلوَفيرَ ، وَكُلَّ أَسْبابِ ٱلسَّعادةِ : فَٱلبَيْتُ فَخْمٌ ، وَٱلأَصْدِقاءُ كَثيرونَ ، وَمُتَطَلَّباتُ حَياةِ ٱلرَّفاهِيةِ مُتَوَفِّرةٌ . وَلٰكِنْ وَسْوَسَتْ لِي نَفْسي أَنْ أُغامِرَ ثانِيةً لِأَرى ما لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ بِلادٍ وَجُزُرٍ وَغَيْرِها . وَعاوَدَني ٱلحَنينُ إلى ٱلتِّجارةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِراءٍ وَمُقايَضةٍ .

وَلَمَّا عَزَمْتُ عَلى ٱلخُروجِ في تِجارةٍ ، مَلَأْتُ ٱلصَّناديقَ بِما خَفَّ حَمْلُهُ وَغَلا ثَمَنُهُ ، مِمَّا تَزْخَرُ بِهِ أَسْواقُ بَغْدادَ . وَحَمَلْتُها إلى ٱلبَصْرةِ ، حَيْثُ رَكِبْتُ سَفينةً تَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ ٱلتُّجّارِ .

أَقْلَعَتْ بِنا ٱلسَّفينةُ في رِحْلةٍ جَميلةٍ ، وَكُنَّا نَتَنَقَّلُ بِها مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرةٍ إلى جَزيرةٍ ، بِحَيْثُ كانَتْ وُجْهةُ سَيْرِنا ٱلجَنوبَ وَٱلشَّرْقَ . وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، رَسَتِ ٱلسَّفينةُ عَلى شاطِئِ جَزيرةٍ غَنِيَّةٍ بِأَشْجارِها ٱلدّائِمةِ ٱلخُضْرةِ ، وَبِأَثْمارِها ٱليانِعةِ ، وَبِأَزْهارِها ٱلفَوّاحةِ ، وَبِأَنْهارِها ذاتِ ٱلمِياهِ ٱلعَذْبةِ . وَلٰكِنَّنا لَمْ نَرَ بِها بَشَرًا .

نَزَلَ بَعْضُ ٱلبَحّارةِ لِيَمْلَأُوا ٱلأَواني بِٱلمِياهِ ٱلعَذْبةِ ، عَلى حِينِ رافَقْتُ بَعْضَ ٱلتُّجّارِ في ٱلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ ٱلجَزيرةِ ، وَشاهَدْنا ٱلأَزْهارَ ٱلرّائِعةَ ٱلجَمالِ . وَقَدْ

وَقَعَتْ عَيْنايَ عَلَى زَهْرةٍ كَبيرةٍ وَجَميلةٍ ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْها وَشَمَمْتُها ، فَرُحْتُ في سُباتٍ عَميقٍ .

وَلَمَّا أَفَقْتُ مِنْ نَوْمي ، وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا ، وَلا أَثَرَ لِلْبَحّارةِ أَوِ ٱلتُّجّارِ عَلى ٱلجَزيرةِ . وَلَمْ أَشْعُرْ إِلّا وَقَدْ أَخَذْتُ أَصْرُخُ : « يا لَلْحَماقةِ ٱلَّتي ٱرْتَكَبْتُها ! لِمَ ٱبْتَعَدْتُ عَنْ بَلَدَيَ ٱلحَبيبِ ؟ هٰأَنَذا أَصْبَحْتُ وَحيدًا ، وَفي مَكانٍ مُقْفِرٍ غَيْرِ عامِرٍ بِٱلسُّكّانِ . وَمِنَ ٱلغَباءِ أَنْ أَصْرُخَ في مِثْلِ هٰذا ٱلمَكانِ . »

الـــرُّخُّ

وَبِكُلِّ مَشَقَّةٍ تَسَلَّقْتُ إِلى أَعْلى شَجَرةٍ ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرُ حَوْلي . فَرَأَيْتُ سَفينَتَنا مُبْحِرةً بَعيدًا ، وَلَمْ أَرَ في ٱلجَزيرةِ إِلّا ٱلأَشْجارَ ، وَلا شَيْءَ غَيْرَ ٱلأَشْجارِ . وَلَمّا أَطَلْتُ ٱلنَّظَرَ ، رَأَيْتُ عَنْ بُعْدٍ شَيْئًا كَبيرًا ، لَوْنُهُ أَبْيَضُ ، وَيُشْبِهُ قُبَّةً هائِلةً فَوْقَ بَيْتٍ .

سِرْتُ نَحْوَ هٰذا ٱلشَّيْءِ عِدَّةَ ساعاتٍ حَتّى وَصَلْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ ٱلغُروبِ . وَوَجَدْتُهُ يُشْبِهُ بَيْضةً ضَخْمةً جِدًّا . وَفي بِدايةِ ٱلأَمْرِ ، ظَنَنْتُها قُبَّةً ، وَلٰكِنْ ، ساءَلْتُ نَفْسي : « إِنْ كانَتْ قُبَّةً ، فَأَيْنَ ٱلبَيْتُ ٱلَّذي أُقيمَتْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ ٱلبابُ ؟ »

بَيْنَما كُنْتُ أُرَدِّدُ هٰذِهِ ٱلأَسْئِلةَ في نَفْسي ، إِذا بِشَيْءٍ يَحْجُبُ ٱلشَّمْسَ ، وَيُحَوِّلُ ٱلنَّهارَ لَيْلًا . وَرَفَعْتُ رَأْسي فَرَأَيْتُ طائِرًا ضَخْمًا جِدًّا . فَتَذَكَّرْتُ ما كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلبَحّارةِ عَنْ طائِرٍ هائِلِ ٱلحَجْمِ يُقالُ لَهُ ٱلرُّخُّ . وَلَنا أَنْ نَتَخَيَّلَ

ضَخامَتَهُ ، إِذا عَلِمْنا أَنَّهُ يَزُقُّ صَغيرَهُ بِفيلٍ مَرَّةً واحِدةً . وَهُنا تَأَكَّدَ لي أَنَّ ٱلطّائِرَ ٱلَّذي أَراهُ هُوَ ٱلرُّخُّ ، وَقَدْ جاءَ لِيَرْقُدَ عَلى ٱلبَيْضةِ . وَفِعْلًا حَضَنَ ٱلبَيْضةَ بِجَناحَيْهِ وَرَقَدَ عَلَيْها . وَهُنا جالَتْ في ذِهْني عِدَّةُ أَسْئِلةٍ مِنْ بَيْنِها : « مِنْ أَيْنَ جاءَ ٱلرُّخُّ ، وَإِلى أَيْنَ سَيَطيرُ ؟ فَقَدْ يَطيرُ إِلى مَكانٍ مَأْهولٍ بِٱلسُّكّانِ ؛ فَمَكانٌ مَأْهولٌ أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ مَكانٍ مُقْفِرٍ .

أَسْرَعْتُ بِٱنْتِزاعِ عِمامَتي مِنْ فَوْقِ رَأْسي ، وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَساقِ ٱلرُّخِّ ٱلشَّبيهةِ بِجِذْعِ ٱلشَّجَرةِ ، وَأَحْكَمْتُ ٱلرِّباطَ . وَعِنْدَما طَلَعَ ٱلصَّباحُ ، طارَ بي في ٱلجَوِّ دونَ أَنْ يَشْعُرَ بِوُجودي . وَطارَ مَسافةً بَعيدةً فَوْقَ بِحارٍ

وَجُزُرٍ وَجبالٍ وَوُدْيانٍ . وَأَخيرًا هَبَطَ في وادٍ سَحيقٍ ، تَحُفُّهُ ٱلهِضابُ وَكَأَنَّها أَسْوارٌ شاهِقَةٌ .

وادي ٱلمـاسِ

انْقَضَّ ٱلرُّخُّ في ٱلوادي عَلى أُفْعًى ضَخْمَةٍ ، فَخِفْتُ عَلى نَفْسي ، وَحَلَلْتُ عِمامَتي مِنْ ساقِهِ وَوَلَّيْتُ هارِبًا ، إِلى أَنْ وَجَدْتُ صَخْرَةً كَبيرَةً ٱخْتَبَأْتُ وَراءَها . أَمّا ٱلرُّخُّ فَقَدْ رَفَعَ ٱلأُفْعى بَيْنَ مَخالِبِهِ ، وَطارَ في ٱلجَوِّ .

نَظَرْتُ حَوْلي فَرَأَيْتُ ٱلأَفاعيَ ٱلمُخيفَةَ تَسْعى في ٱلوادي ، حَتّى إِنَّ بَعْضَها كانَ يُضارِعُ ٱلسَّفينَةَ في طُولِها . وَلٰكِنَّها في وَضَحِ ٱلنَّهارِ تَلْجَأُ إِلى جُحورِها ، لِأَنَّها تَنامُ نَهارًا ، وَتَسْعى في طَلَبِ طَعامِها لَيْلًا . وَلِهٰذا لا خَوْفَ عَلَيَّ مِنْها في ٱلنَّهارِ ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أَبْحَثَ عَنْ مَخْرَجٍ لي مِنَ ٱلوادي . وَمَشَيْتُ مَسافَةً طَويلَةً ، وَإِذا بي أَرى أَنَّ قاعَ ٱلوادي مُغَطًّى بِٱلماسِ ٱلنَّفيسِ ، وَبِأَحْجامٍ كَبيرَةٍ وَجَميلَةٍ ، وَلٰكِنّي ما كُنْتُ راغِبًا في ٱلماسِ ، بَلْ في ٱلخُروجِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلوادي .

وَعِنْدَما حَلَّ ٱللَّيْلُ ، بَدَأَتِ ٱلأَفاعي تَخْرُجُ مِنْ جُحورِها ، وَلِحُسْنِ حَظّي وَجَدْتُ نَفْسي عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْ كَهْفٍ صَغيرٍ عَلى مَدْخَلِهِ صَخْرَةٌ كَبيرَةٌ ، فَجَرَرْتُ إِلَيْهِ وَأَزَحْتُ ٱلصَّخْرَةَ ٱلكَبيرَةَ عَنْ مَدْخَلِهِ . وَكانَتْ هٰذِهِ ٱلصَّخْرَةُ نِعْمَةً لي ، إِذْ حَمَتْني طِيلَةَ ٱللَّيْلِ مِنَ ٱلأَفاعي ٱلَّتي كُنْتُ أَسْمَعُ فَحيحَها حَوْلَ ٱلكَهْفِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعِ ٱلوُصولَ إِلَيَّ .

تُجّـارُ ٱلمـاسِ

في ٱلصَّباحِ ، خَرَجْتُ مِنَ ٱلكَهْفِ ، وَفِكْري مُنْصَرِفٌ إِلى كَيْفِيَّةِ ٱلخُروجِ مِنَ ٱلوادي . وَإِذا بي أَسْمَعُ صَوْتَ ٱرْتِطامِ شَيْءٍ بِٱلأَرْضِ قَريبًا مِنّي . وَٱلْتَفَتُّ إِلى جِهَةِ ٱلصَّوْتِ ، فَشاهَدْتُ كُتْلَةً مِنَ ٱللَّحْمِ سَقَطَتْ عَلى قِطَعِ ٱلماسِ ، وَٱلدَّمُ لا يَزالُ يَسيلُ مِنْها . فَعَجِبْتُ لِما أَرى ، وَعِنْدَها عادَتْ بي ٱلذّاكِرَةُ إِلى ما سَمِعْتُهُ عَنْ وادي ٱلماسِ ، وَكَيْفَ يَتَحايَلُ ٱلتُّجّارُ عَلى جَمْعِهِ بِإِلْقاءِ كُتَلِ ٱللَّحْمِ فَوْقَ ٱلماسِ في ٱلوادي . وَمِنْ شَأْنِ حَرارَةِ ٱلشَّمْسِ أَنْ تَجْعَلَ كُتَلَ ٱللَّحْمِ لَزِجَةً فَتَلْتَصِقَ بِها قِطَعُ ٱلماسِ . وَتَجيءُ ٱلطُّيورُ ٱلضَّخْمَةُ فَتَحْمِلُها بَيْنَ مَخالِبِها ، وَتَطيرُ بِها لِتُطْعِمَ صِغارَها في ٱلهِضابِ ٱلقَريبَةِ . وَما إِنْ تَهْبِطَ ٱلطُّيورُ ، حَتّى يُفاجِئَها ٱلتُّجّارُ بِٱلصَّيْحاتِ ٱلقَويَّةِ ، فَتَنْفِرَ وَتَلوذَ بِالطَّيَرانِ ، وَيَذْهَبَ كُلُّ تاجِرٍ إِلى كُتْلَةِ ٱللَّحْمِ ٱلَّتي أَلْقاها ، وَيَجْمَعَ ما لَصِقَ بِها مِنَ ٱلماسِ .

قُلْتُ في نَفْسي : « لَقَدْ جاءَ بي إِلى هٰذا ٱلمَكانِ طائِرٌ ، وَمِنَ ٱلضَّروريِّ أَنْ يَأْخُذَني مِنْ هٰذا ٱلمَكانِ طائِرٌ آخَرُ . » وَبِناءً عَلى هٰذا ٱلٱفْتِراضِ ، مَلأْتُ كِيسَ ٱلطَّعامِ ٱلَّذي كانَ مَعي بِأَكْبَرِ قِطَعِ ٱلماسِ وَأَنْفَسِها ، ثُمَّ فَكَكْتُ عِمامَتي وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَأَكْبَرِ كُتْلَةٍ مِنَ ٱللَّحْمِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّها ، وَٱسْتَلْقَيْتُ عَلى ٱلأَرْضِ بِحَيْثُ تَكونُ كُتْلَةُ ٱللَّحْمِ فَوْقي .

ٱلإِنْقاذُ

بَعْدَ فَتْرَةٍ هَبَطَ طائِرٌ ضَخْمٌ جِدًّا وَرَفَعَني وَكُتْلَةَ ٱللَّحْمِ ، وَطارَ بي مِنَ

الوادي . وَكانَ صِياحُ الطُّيورِ بانْتِظارِ أَبيهِمْ عِنْدَ قِمَّةِ الهَضْبَةِ . وَما إِنْ رَآهُ التُّجّارُ ، حَتَّى تَعالَتْ صَيْحاتُهُمْ ، فَأَلْقَى الطَّائِرُ كُتْلَةَ اللَّحْمِ وطار . وقَدْ أُصِيبُوا بِالذُّعْرِ عِنْدَما رَأَوْني أَحُلُّ الرِّباطَ وَأَنْهَضُ على قَدَمَيَّ وَالدَّمُ يَلْطَخُ ملابسي ، ودلائِلُ المرضِ على جسْمي بَعْدَ رِحْلَتَيْنِ جَوِّيَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِما مَرْبوطًا في كُلِّ مَرَّةٍ إلى ساقِ طائِرٍ . ولٰكِنّي هَدَّأْتُ مِنْ رَوْعِهِمْ . وقُلْتُ لَهُمْ :

« أَنا رَجُلٌ مِثْلُكُمْ ، وقَدْ حَمَلَني الطَّائِرُ الَّذي حَمَلَ كُتْلَةَ اللَّحْمِ مِنْ وادي الماسِ . ولَمْ يَلْتَصِقْ بِكُتْلَةِ اللَّحْمِ هٰذِهِ شَيْءٌ مِنَ الماسِ ، ولٰكِنّي أَحْضَرْتُ مَعي قِطَعًا مِنْهُ ، كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ جَميعِ الماسِ الَّذي كانَ سيُلْصَقُ بِكُتْلَةِ اللَّحْمِ وإِنّي بِكُلِّ سُرورٍ سأُعْطي بَعْضًا مِنْها لِصاحِبِ كُتْلَةِ اللَّحْمِ هٰذِهِ . »

اقْتَرَبَ التُّجّارُ مِنّي ، وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ ، وَتَحَدَّثُوا مَعي بِما خَفَّفَ عَنّي ما لاقَيْتُهُ ، فَقَدْ قالُوا لي : « إِنَّكَ إِنْسانٌ مَحْظوظٌ ، إِذْ لَمْ يُقَدَّرْ لِإِنْسانٍ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هٰذا الوادي . »

وساعَدَني التُّجّارُ على بَيْعِ بَعْضِ قِطَعِ الماسِ ، والبَحْثِ عَنْ سَفينَةٍ تَقْصِدُ بَغْداد .

العَوْدَةُ

عُدْتُ إِلى بَغْدادَ رَجُلًا غَنِيًّا جِدًّا بِما أَحْمِلُهُ مَعي مِنْ أَكْبَرِ قِطَعِ الماسِ في العالَمِ ومِنَ الجَواهِرِ النَّفيسَةِ . وَعِنْدَما وَطِئَتْ قَدَماي أَرْضَ الوَطَنِ ، قُلْتُ

نَفْسي : « سَأَقْضي بَقِيَّةَ عُمْري في بَيْتي الجَميلِ ، أُنْفِقُ مِنْ ثَرْوَتي الطّائِلَةِ ، وأَسْتَمْتِعُ بِصُحْبَةِ أَصْدِقائي . أَمّا رُكوبُ البَحْرِ فَلا عَوْدَةَ إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ تَحَشَّمْتُ المَشاقَّ ، وَتَعَرَّضْتُ لِلْأَخْطارِ في رِحْلَتَيَّ الَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِما . »

ولٰكِنّي لَمْ أَفِ بِما وَعَدْتُ ، بَلْ رَكِبْتُ البَحْرَ مَرَّةً ثالِثَةً . وَغَدًا إِنْ شاءَ اللهُ ، سَأُحَدِّثُكُمْ ، أَيُّها الأَصْدِقاءُ ، عَنْ رِحْلَتي الثّالِثَةِ .

الرِّحْلةُ الثَّالِثةُ

لَمْ يَمْضِ زَمَنٌ طويلٌ حَتَّى تاقَتْ نَفْسي لِزيارةِ تِلْكَ الدِّيارِ لَمْ أَزُرْها مِنْ قَبْلُ ، أَبيعُ فيها وَأَشْتَري . وَكانَ أَنْ أَقْلَعْتُ مِنَ البَصْرةِ مَعَ آخَرينَ مِنَ التُّجّارِ عَلى سَفينةٍ عَظيمةٍ ، راحَتْ تَتَنَقَّلُ بِنا مِنْ بَنْدٍ إِلى بَنْدٍ ، وَمِنْ جَزيرةٍ إِلى جَزيرةٍ . وَكُنّا نَبيعُ وَنَشْتَري وَنَكْسِبُ الكَثيرَ ؛ فَكَثُرَتْ أَمْوالُنا ، وَرادَتْ ثَرَواتُنا ، عِلاوةً عَلى السُّرورِ الَّذي نَعِمْنا بِهِ أَثْناءَ الرِّحْلةِ .

وَوَسَطَ هٰذا الجَوِّ مِنَ السُّرورِ الَّذي كُنّا نَعيشُهُ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفةٌ هَوْجاءُ جَعَلَتْ مِنَ السَّفينةِ اللُّعْبةَ تَتَلَهّى بِها ، تَقْذِفُها ذاتَ اليَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ . وَدامَتِ العاصِفةُ أَرْبَعةَ أَيّامٍ بِلَيالِيها ، كُنّا خِلالَها تَحْتَ رَحْمَتِها ، إِلى أَنْ وَجَدْنا أَنْفُسَنا عِنْدَ جَزيرةٍ .

وَجاءَنا الرُّبّانُ ، وَعَلاماتُ الخَوْفِ وَالقَلَقِ مُرْتَسِمةٌ عَلى وَجْهِهِ ، وَقالَ : « لَنْ نَسْتَطيعَ مُواصَلةَ الإِبْحارِ في مِثْلِ هٰذا الجَوِّ العاصِفِ ، وَلا نَسْتَطيعُ النُّزولَ فَوْقَ هٰذِهِ الجَزيرةِ ، فَأَنا أَعْرِفُ الكَثيرَ عَنْها ؛ إِنَّهُ تَعيشُ فَوْقَها جَماعاتٌ مِنَ القُرودِ ، إِذا رَأَتْ سَفينةً صَعِدَتْ إِلى ظَهْرِها بِالآلافِ . وَلَوْ حاوَلَ أَحَدٌ مَنْعَها مِنَ الصُّعودِ ، هَجَمَتْ عَلَيْهِ جُموعُها وَفَتَكَتْ بِهِ . وَعَلَيْهِ أَرْجُو أَلّا يُحاوِلَ أَحَدُكُمُ التَّعَرُّضَ لَها . »

القُـرُودُ

ما كادَ الرُّبّانُ يُتِمُّ كَلامَهُ ، حَتّى أَخَذَتِ القُرودُ تَتَوافَدُ بِالآلافِ . وَصَعِدَتْ إِلى سَطْحِ السَّفينةِ ، دونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَها أَحَدٌ . ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِالبَحّارةِ وَالتُّجّارِ وَأَنْزَلَتْهُمْ إِلى الجَزيرةِ ، وَقامَتْ بِتَسْييرِ السَّفينةِ إِلى جِهةٍ أُخْرى بَعيدًا عَنِ الجَزيرةِ .

بَعْدَ اسْتِيلاءِ القُرودِ عَلى السَّفينةِ وَما فيها ، أَخَذْنا نَنْعَمُ النَّظَرَ فيما نَحْنُ فيهِ ؛ وَأَرادَتْ عَلى خَواطِرِنا الأَفْكارُ وَالاقْتِراحاتُ : « مِنَ المُسَلَّمِ بِهِ أَنَّ في الجَزيرةِ قُرودًا أُخْرى لا حَصْرَ لَها . فَماذا عَسانا أَنْ نَفْعَلَ ؟ ما هُوَ المَكانُ الَّذي نَسْتَطيعُ الذَّهابَ إِلَيْهِ ؟ »

وَشاهَدَ أَحَدُ البَحّارةِ مِنْ أَعْلى شَجَرةٍ كانَ يَقِفُ عَلَيْها بَيْتًا حَجَريًّا ضَخْمًا ، فَقالَ مُتَسائِلًا : « أَمِنَ الحِكْمةِ أَنْ نَقْصِدَ ذٰلِكَ البَيْتَ وَنَخْتَبِئَ فيهِ لِاتِّقاءِ شَرِّ هٰؤُلاءِ القُرودِ ؟ »

في ذٰلِكَ البَيْتِ الحَجَرِيِّ ، دَخَلْنا قاعَةً فَسيحةً ، وَكُلُّنا يَتَطَلَّعُ بِحِرْصٍ إِلى مَصْراعَيِ البابِ . وَإِذا بِنا نَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدامِ مارِدٍ . وَما إِنْ دَخَلَ القاعَةَ ، حَتّى أَغْلَقَ البابَ الضَّخْمَ خَلْفَهُ ؛ فَسَدَّ أَمامَنا طَريقَ الهَرَبِ .

طَعامُ المارِدِ

كانَ المارِدُ ضَخْمَ الجُثَّةِ ، وَكَأَنَّهُ شَجَرةٌ باسِقةٌ بِعَيْنَيْنِ وَكَأَنَّهُما شُعْلَتانِ مِنْ

نارٍ مُتَأَجِّجةٍ . وَأَسْنانٍ كَأَنَّها صُخورٌ حادَّةٌ بَيْضاءُ ، وفَمٍ كأَنَّهُ كَهْفٌ . وبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ بِهِ المُقامُ ، أَخْرَجَ بَعْضَ الحطبِ مِنْ صُنْدوقٍ في القاعة ، وأَشْعَلَ نيرانًا كبيرةً ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَفَرَّسُ في وُجوهِنا . وكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَهُ بيده . وأَخَذَ يُقَسِّمُنِي ؛ فَوَجَدَنِي ضَعيفًا هزيلًا فَتَرَكَنِي . ولِحُسْنِ الحظِّ ، أَنَّ مَلابِسي الفاخِرَةَ كانَتْ تَكْسو جِسْمًا لَيْسَ بِأَسْمَنَ مِنْ أُصْبُعِهِ . ثُمَّ أَخَذَ يَرْفَعُ الرِّجالَ ، واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ ، حَتَّى وَجَدَ الأَسْمَنَ ؛ فَأَكَلَهُ . وبَعْدَ أَنِ اسْتَراحَ قَليلًا ، غَرِقَ في نَوْمٍ عَميقٍ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التَّالي ، غادَرَ المارِدُ البَيْتَ ، بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ البابَ الضَّخْمَ

خَلْفَهُ ؛ فَتَعَذَّرَ عَلَيْنا الخُروجُ . وَعِنْدَما حَلَّ المَساءُ ، عادَ المارِدُ ثانِيَةً ، وَأَخَذَ يَرْفَعُنا بِيَدِهِ ، واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ ، حَتَّى وَجَدَ ضالَّتَهُ في شَخْصِ رُبَّانِ السَّفينةِ ؛ فَأَكَلَهُ وَنامَ .

فِرارُنا مِنَ المارِدِ

بَعْدَ أَنْ غادَرَ المارِدُ البَيْتَ في صَباحِ اليَوْمِ التَّالي ، وَأَوْصَدَ البابَ خَلْفَهُ ، خاطَبْتُ أَصْحابِي قائِلًا : « عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا ، وَإِلَّا فَسَيَأْكُلُنا المارِدُ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ . إِنَّهُ ضَخْمٌ فَلا نَسْتَطيعُ الفَتْكَ بِهِ في حالَةِ يَقَظَتِهِ . » ثُمَّ أَطْلَعْتُهُمْ عَلَى الخُطَّةِ الَّتي دَبَّرْتُها .

في مَساءِ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، حَضَرَ المارِدُ – كَعادَتِهِ – وَجَلَسَ في القاعةِ ، وَأَخَذَ واحِدًا مِنّا وَالْتَهَمَهُ ، ثُمَّ نامَ .

وَبِمُنْتَهى السُّرْعةِ شَرَعْنا في تَنْفيذِ خُطَّتِنا : وَضَعَ اثْنانٍ مِنّا قَضيبَيْنِ مِنَ الحَديدِ في النّارِ حَتَّى أَصْبَحا مِثْلَ جَمْرَتَيْنِ . وَفي نَفْسِ الوَقْتِ قامَ اثْنانِ آخَرانِ بِخَرْقِ مَنْفِذٍ في البابِ ، على حِينِ انْصَرَفَ اثْنانِ إِلى بِناءِ عِدَّةِ أَطْوافٍ مِنْ قِطَعِ الخَشَبِ الَّتي كانَ المارِدُ قَدْ وَضَعَها في الصُّنْدوقِ .

وَما إِنْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ حَسَبَ الخُطَّةِ المَرْسومةِ ، حَتَّى صِحْتُ فيهِمْ قائِلًا : « الآنَ ! » وَهِيَ كَلِمَةُ السِّرِّ بَيْنَنا . فَغَرَزْنا القَضيبَيْنِ المُتَّقِدَيْنِ في عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ وَلَّيْنا الأَدْبارَ ، حامِلينَ الأَطْوافَ الَّتي أَعْدَدْناها ، وَجَرَيْنا نَحْوَ الشَّاطِئِ .

وَكانَتْ صَرَخاتُ المارِدِ تَطِنُّ في آذانِنا . وَأَنْزَلْنا الأَطْوافَ إِلى الماءِ . وَما

كِدْنا نَتحرَّكُ ، حَتَّى رَأَيْنا ٱلمارِد ، يَقودُهُ ٱثْنان مِنْ أَصْدقائِهِ بَعْد أَنْ فقدَ بَصرهُ ، يَسيرونَ إِلى ٱلشَّاطِئِ . وَما إِنْ أَبْصرانا حَتَّى قَذفانا بِالصُّخورِ ٱلكبيرةِ ، وَكانَتِ ٱلواحِدةُ مِنْها في حَجْمِ ٱلبَيْت . وقدْ سَقطَ بَعْضُها في ٱلبَحْر ، وأَصابَ بَعْضُها ٱلآخَرُ أَطْوافَنا ، وَقتلَ بَعْضَ رِجالِنا . ولَمْ يَنْجُ إِلَّا ٱلطَّوْفُ ٱلَّذي كُنْتُ فيهِ . وَقدْ بَدلْنا أَقْصى ٱلجُهودِ نُحاوِلُ ٱلخُروجَ بِهِ إِلى غُرْصِ ٱلبَحْر . ثُمَّ هَبَّتْ عواصِفُ عاتِيةٌ حَمَلَتْنا بَعيدًا ، وطِئْتُ تتقاذفُنا أَيامًا ، إِلى أَنْ ٱلْقَتْ بِنا على شاطِئِ جَزيرةٍ .

الأَفْعــى

لَمْ تُكْتب ٱلنَّجاةُ إِلَّا لِثلاثةٍ مِنّا . ولٰكنَّ أَحْوالَنا كانَتْ سَيِّئةً ، فكانَ قدْ مضى عَلَيْنا وقْتٌ طويلٌ بدون طعامٍ أَوْ ماءٍ . وفي ٱلجزيرةِ وجَدْنا أَشْجارَ فاكِهةٍ وَنَهَيْرًا عَذْبَ ٱلمياهِ ، فَأَكَلْنا وَشَرِبْنا .

بَعْدَ تِلْكَ ٱلرِّحْلةِ ٱلمُضْنِيةِ في ٱلطَّوْفِ ، غَزا ٱلنُّعاسُ أَجْفانَنا ؛ فَرَحْنا في سُباتٍ عَميقٍ ، وَلَمْ يوقِظْنا إِلَّا صِياحٌ مُتواصِلٌ . ونظَرْنا حَوْلَنا .. ويالَهوْلِ ما رأَيْنا ! رَأَيْنا أُفْعى ضَخْمةً ٱلتفَّتْ حَوْلَنا ، بَحيْثُ لَمْ نَسْتطِعِ ٱلفِرار . ثُمَّ بَدَأَتْ بواحِدٍ مِنْ صاحِبَيَّ ، فابْتَلَعَتْهُ دونَ أَنْ تَهْشِمَ لَحْمَهُ ، بَلْ رَأَيْناهُ وهُوَ يَدْخُلُ في جَوْفِها ، وَسمِعْنا صَيْحاتِ ٱسْتِغاثَتِهِ تتردَّدُ بَعْضَ ٱلوَقْتِ ثُمَّ تَهْمَدُ إِلى ٱلأَبَد .

قَضَتِ ٱلأُفْعى ٱللَّيْلةَ بِطُولِها في مَكانِها ، على حِينَ تَمَلَّكَني وَصاحِبي ٱلذُّعْرُ ؛ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدُنا أَوْ يَنْبِسْ بِكَلِمةٍ . وفي ٱلصَّباحِ ، ٱنْسابَتْ راجِعةً إِلى

جُحْرِها . وَتَشاوَرْتُ وَصاحِبي فيما يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَهُ ، قَبْلَ أَنْ تَعودَ ٱلأُفْعى وَتَبْتَلِعَ أَحَدَنا . وَأَحَدْنا نَحُولُ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ وَنَقْطِفُ ٱلثِّمارَ وَنَرْتَوي مِنْ مِياهِ ٱلنَّهَيْرِ ، وَنَحْنُ نَبْحَثُ عَنْ كَهْفٍ نَخْتَبِئُ فيهِ ؛ وَلٰكِنَّنا فَشِلْنا في مُحاوَلَتِنا . وَقَبْلَ حُلولِ ٱلظَّلامِ صَعِدْنا شَجَرةً لِنَنامَ فَوْقَها . وَلَمَّا كُنْتُ أَتَفَوَّقُ عَلى زَميلي في ٱلقُوَّةِ ٱلجِسْمِيَّةِ ، فَقَدِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْعَدَ أَعْلى مِنْهُ . وَلَمَّا حَلَّ ٱللَّيْلُ ، عادَتِ ٱلأُفْعى تَبْحَثُ عَنَّا . فَتَسَلَّقَتِ ٱلشَّجَرةَ وَٱبْتَلَعَتْ صاحِبي . وطَلَلْتُ هُنَيْهةً أَسْمَعُ صَيْحاتِ ٱلاسْتِغاثةِ مِنْ جَوْفِ ٱلأُفْعى تَطِنُّ في أُذُنَيَّ . وهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا .

في ٱلصَّباحِ ، عادَتِ ٱلأُفْعى ٱلمَكانَ ، فَساءَلْتُ نَفْسي : « مادا عَساني أَنْ أَفْعَلَ ؟ سَتَعودُ ٱلأُفْعى لَيْلًا وَتَفْعَلُ بي ما فَعَلَتْ بِصاحِبَيَّ . هَلْ أَقْذِفُ بِنَفْسي في ٱلبَحْرِ لِأَنْجُوَ مِنْ شَرِّها ؟ »

بَعْدَ أَنْ تَناوَلْتُ بَعْضَ ٱلفاكِهةِ ، أَحْدَثُ أَفْكَرُ ، وَأَفْكَرُ . وَأَخيرًا قَرَّرْتُ أَنْ أَسير عَلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ . وَلِحُسْنِ ٱلحَظِّ لَمْ أَرَ لِلْقُرودِ أَثَرًا في تِلْكَ ٱلجَزيرةِ . وٰلٰكِني رَأَيْتُ أَكْوامًا مِنَ ٱلخَشَبِ وَٱلحِبالِ ، وَكانَتْ مِنْ بَقايا سُفُنٍ مُحَطَّمةٍ . وعلى ٱلفَوْرِ ٱخْتَرْتُ قِطَعًا طَويلةً مِنَ ٱلخَشَبِ وَصَنَعْتُها حَوْلَ قَدَمَيَّ وَفَوْقَ رأْسي وَحَوْلَ جِسْمي وَحابَيَّ ، وَشَدَدْتُها بِٱلحِبالِ لِأُثَبِّتَها ، وَرَقَدْتُ عَلى ٱلأَرْضِ ٱنْتِظارًا لِما سَيَحْدُثُ .

لَمَّا هَبَطَ ٱللَّيْلُ ، رَأَيْتُ ٱلأُفْعى تَفْتَحُ فَمَها وَتَنْقَضُّ عَلى رَأْسي ، وَعَلى حابَيَّ ، وَعَلى قَدَمَيَّ وَعَلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنْ جِسْمي ، وَلٰكِنَّها فَشِلَتْ في

ٱلْوصولِ إِلَيَّ . فَقَدْ مَنَعَتْها قِطَعُ ٱلخشَبِ مِنْ تَحْقيقِ مَأْرِبِها . وَرَغْمَ مُحاوَلاتِها ٱلْمُتَكَرِّرةِ لَمْ تُفْلِحْ في ٱلْوُصُولِ إلى أَيِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضاءِ جِسْمي وَلَمَّا أَعْيَتْها ٱلحِيَلُ ، غادَرَتِ ٱلْمَكانَ .

في ٱلصَّباحِ ، صَنَعْتُ لِنَفْسي زَوْرَقًا مِنْ بَقايا حُطامِ ٱلسُّفُنِ وَقِطَعِ ٱلخشَبِ وَٱلحِبالِ ، ثُمَّ جَمَعْتُ بَعْضَ ٱلفاكِهةِ ، وَمَلَأْتُ بَعْضَ ٱلأَوانِي بِٱلماءِ ، وَتَرَكْتُ ٱلْبَحْرَ هَرَبًا مِنْ تِلْكَ ٱلْجَزيرةِ ٱلرَّهيبةِ .

سَفينَــةُ ٱلنَّجــاةِ

لا أُريدُ أَنْ أَتَذكَّرَ تِلْكَ ٱلأَيَّامَ ٱلَّتي قَضَيْتُها في عُرْضِ ٱلْبَحْرِ عَلى زَوْرَقٍ مَكْشوفٍ ، حينَما كانَتِ ٱلشَّمْسُ تَنْحُتي بِحَرارَتِها ٱلْمُتَوَهِّجةِ ، وَٱلأَمْواجُ تَقْذِفُ بِالزَّوْرَقِ هُنا وَهُناك . وَلٰكِنْ ، ما بَعْدَ ٱلْعُسْرِ إِلَّا ٱلْيُسْرُ ، وَما بَعْدَ ٱلضِّيقِ إِلَّا ٱلفَرَجُ ، فَقَدْ لاحَتْ لي عَنْ بُعْدٍ سَفينةٌ تَمْخُرُ عُبابَ ٱلْبَحْرِ

وَقَدْ لَعِبَ ٱلحظُّ دَوْرَهُ ، عِنْدما شاهَدَني بَحَّارَتُها ؛ فَأَسْرَعوا لإِنْقاذي ، وَأَحْسَنوا مُعامَلَتي . وَقَدْ سَمِعَ ٱلرُّبَّانُ وَبَعْضُ ٱلتُّجَّارِ بِمأْساتي ؛ فَطَيَّبَ ٱلرُّبَّانُ خاطِري قائِلًا : « سَنَحْمِلُكَ إِلى ٱلْبَصْرةِ ، بَعْدَ زِيارَتِنا لِبَعْضِ ٱلأَماكِنِ ، حَيْثُ سَيَبيعُ ٱلتُّجَّارُ بَضائِعَهُمْ وَيَبْتاعونَ غَيْرَها . وَإِذا ما طابَتِ ٱلرِّيحُ في رِحْلَتِنا ، حَمَلْناكَ إِلى ٱلْبَصْرةِ في أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ . »

وَفي أَوَّلِ ميناءٍ رَسَتْ فيهِ ٱلسَّفينةُ ، سَمِعْتُ ٱلرُّبَّانَ يُلْقي بِأَوامِرِهِ إِلى

ٱلتُّجَّارِ : « أَحْضِروا بَضائِعَ ٱلسِّنْدِباد لِبَيْعِها وَسَلِّمْ ثَمَنَها إِلى أُسْرَتِهِ في بَغْداد . »

وَلَمَّا سَمِعْتُ ما قالَهُ ٱلرُّبَّانُ ، تَقَدَّمْتُ مِنْهُ وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تَحْمِلُ ٱلْبَضائِعُ عَلاماتٍ مُمَيِّزةً ؟ » لِأَنِّي أَضَعُ عَلاماتٍ خاصَّةً دائِمًا عَلى بَضائِعي وَصَناديقي في جَميعِ رِحْلاتي . فَأَجابَني ٱلرُّبَّانُ : « نَعَمْ ! إِنَّ ٱلبضاعة تَحْمِلُ عَلاماتٍ مُمَيِّزةً . وَلٰكِنْ ، كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ ؟! لَقَدْ مَضى عَلى هٰذِهِ ٱلبضاعة زَمَنٌ طَويلٌ وَهِيَ أَسْفَلُ جَميعِ ٱلبضائِعِ ٱلأُخْرى ، وَقَدْ لَقِيَ صاحِبُها حَتْفَهُ في جَزيرةِ ٱلرُّخِّ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ . »

فَصاحَ بِقَوْلي : « أَيُّها ٱلرُّبَّانُ ! إِنَّ صاحِبَها لَمْ يَمُتْ ، بَلْ هُوَ حَيٌّ يُرْزَقُ ، فَأَنا ٱلسِّنْدِباد . »

وَرَوَيْتُ لَهُ ما جَرى لي مُنْذُ ٱلبِدايةِ حَتَّى ٱلنِّهايةِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلى ٱلرُّبَّانِ أَنْ يُصَدِّقَني في ٱلحالِ . وَلٰكِنَّهُ ٱقْتَنَعَ أَخيرًا بِصِدْقِ قَوْلي ، لِما أَوْرَدْتُهُ مِنْ أَدِلَّةٍ واضِحةٍ . وَبَعْدَ أَنْ بِعْتُ بَضاعَتي وَٱشْتَرَيْتُ غَيْرَها لأَبيعَها في بَغْداد ، حَدَّثَتْني نَفْسي بِأَنَّني قَدْ أَزْدادُ أَضْعافًا مُضاعَفةً بَعْدَ ٱلرِّحْلةِ ٱلثَّالِثةِ . وَقَدْ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَعيشَ سَعيدًا في بَغْداد دونَ أَنْ أُغامِرَ في أَيَّةِ رِحْلةٍ أُخْرى

وَلٰكِنَّني أَخْلَفْتُ ٱلوَعْدَ ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ غَدًا – إِنْ شاءَ ٱللهُ – عَنْ رِحْلَتي ٱلرَّابِعةِ .

الرِّحْلَةُ الرَّابِعَةُ

في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، قَدِمَ لِزِيارَتي بَعْضُ التُّجّارِ ، وَ جَلَسْنا نَسْتَعيدُ ذِكْرياتِ الأَيَّامِ الخالِيَةِ ، بِما فيها مِنْ رِحْلاتٍ ، وَبِما زُرْنا مِنْ أَماكِنَ . وَلَمْ يَحْصُرْنا في حَديثِنا إِلَّا حُلْوُ الذِّكْرياتِ . وتَطَرَّقَ بِنا الحَديثُ إِلى ضَرُورَةِ القِيامِ بِرِحْلَةٍ إِلى الشَّرْقِ ، لِما فيها مِنْ فَوائِدَ لَنا . وَما إِنِ اتَّفَقْنا حَتَّى حَزَمْتُ بَعْضَ الضَّائِعِ ، وَأَبْحَرْنا خُبوبًا مُشْرِقًا قاصِدينَ بُلْدانَ الشَّرْقِ الغَنِيَّةِ بِخَيْراتِها . وَقَدْ أَحْدَثَتِ السَّفينَةُ تَنَقُّلٌ بِنا مِنْ جَزيرَةٍ إِلى جَزيرَةٍ ، وَمِنْ بَحْرٍ إِلى بَحْرٍ ، نَبيعُ وَنَشْتَري ، وَنُمَتِّعُ عُيونَنا بِمَباهِجِ الحَياةِ في تِلْكَ البِلادِ .

وَفي إِحْدَى اللَّيالي ، وَنَحْنُ عَلى بُعْدِ شاسِعٍ مِنَ الوَطَنِ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفَةٌ هَوْجاءُ أَطاحَتْ بِالسَّفينَةِ وَقَلَبَتْها عَلى جانِبِها ، وَقَذَفَتْ بِنا وَسْطَ البَحْرِ . وَأَصْبَحْنا تَحْتَ رَحْمَتِهِ ، وَأَيْقَنْتُ وَأَنا أُشاهِدُ السَّفينَةَ تَغوصُ في أَعْماقِ البَحْرِ أَنَّها ساعَتي الأَخيرَةُ . وَبَيْنَما كُنْتُ أُصارِعُ الأَمْواجَ ، رَأَيْتُ لَوْحًا مِنَ الخَشَبِ يَقْتَرِبُ مِنّي ، فَأَمْسَكْتُ بِهِ بَيْنَ ذِراعَيَّ ، وَعاوَنَتْ بَعْضَ التُّجّارِ وَالبَحّارَةِ عَلى أَنْ يَتَعَلَّقُوا بِأَلْواحٍ خَشَبِيَّةٍ أُخْرى كانَتْ تَطْفو فَوْقَ الماءِ .

أَحْياءٌ عَلى الشّاطِئِ

اسْتَمَرَّتِ الرِّياحُ وَالأَمْواجُ تَدْفَعُنا إِلى أَنْ قَذَفَتْ بِنا عَلى اليابِسَةِ . وَمِنْ شِدَّةِ

ما لَحِقَنا مِنْ تَعَبٍ ، قَضَيْنا لَيْلَتَنا حَيْثُ كُنّا . وَما إِنْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، حَتّى طَلَعَ عَلَيْنا بَعْضُ الرِّجالِ ، وَكانُوا شَديدِي البَشاعَةِ . وَأَخَذُونا إِلى مَلِكِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَوْسَعُونا ضَرْبًا بِأَيْديهِمْ وَرَكْلًا بِأَقْدامِهِمْ .

وَلَمّا مَثُلْنا أَمامَ المَلِكِ ، أَمَرَ رِجالَهُ بِإِخْلاسِنا وَتَقْديمِ الطَّعامِ لَنا . وَكانَ الطَّعامُ غَريبًا ، لَمْ أَرَ لَهُ مَثيلًا مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنَّ الجوعَ دَفَعَ التُّجّارَ وَالبَحّارَةَ إِلى تَناوُلِهِ ، أَمّا أَنا ، فَلَمْ تَقْبَلْهُ نَفْسي ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ أَصابَني بِالغَثَيانِ

ما أَسْعَدَني ! فَالحَظُّ لَمْ يُفارِقْني . لَقَدْ تَرَكَ الطَّعامُ أَثَرًا غَريبًا في أَصْحابي ، فَرَأَيْتُهُمْ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهَةٍ وَنَهَمٍ وَبَلاهَةٍ ، حَتّى إِنَّ الواحِدَ مِنْهُمْ كانَ يَغْرِفُ الطَّعامَ بِكِلْتا يَدَيْهِ لِيُشْبِعَ نَهَمَهُ . كُلُّ هٰذا كانَ يَجْري عَلى مَشْهَدٍ مِنّي . وَقَدْ تَذَكَّرْتُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ما كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُهُ عَنْ هٰؤُلاءِ الرِّجالِ البَشِعينَ الَّذينَ إِذا وَقَعَ في أَيْديهِمْ أُناسٌ مِنْ بُلْدانٍ أُخْرى ، قَدَّمُوا لَهُمْ مِثْلَ هٰذا الطَّعامِ الَّذي يَجْعَلُ آكِليهِ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهَةٍ ، فَيَزْدادونَ سِمْنَةً بِشَكْلٍ عَجيبٍ . وَبَعْدَها يُقَدِّمونَ وَجْبَةً شَهِيَّةً لِلرِّجالِ البَشِعينَ وَلَمْ يَسْمَعْني إِلَّا أَنْ أَصْرُخَ فيهِمْ ، طالِبًا مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَقَّفوا عَنِ الأَكْلِ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجيبوا لِدَعْوَتي ، إِذْ كانَ هَمُّهُمُ الوَحيدُ حَشْوَ بُطونِهِمْ ، وَلا شَيْءَ سِواهُ .

الفِرارُ

أَخَذَ أَصْحابي يَزْدادونَ سِمْنَةً ، يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ ، وَكانَ الرِّجالُ البَشِعونَ لا يُفارِقونَهُمْ ، وَلا يَنْقَطِعونَ عَنْ حَثِّهِمْ عَلى تَناوُلِ المَزيدِ مِنَ الطَّعامِ ، في الوَقْتِ

الَّذي كانُوا يَرْوُنَني أَزْدادُ هُزالًا ، لِانْقطاعي عنِ الطَّعامِ ، ولا يَحْمِلُون بي ، لِأَنَّ ما عِنْدَهُمْ يَكْفيهِمْ .

وَكانَ الأَلَمُ يَعْصِرُني ، وأنا أَرى ما يَفْعَلُهُ أَصْحابي ، وَأَتَخَيَّلُ المَصيرَ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ . فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَيْسَ لَدَيَّ مِنْ سَبيلٍ إِلى إِنْقاذِهِمْ ، ولَكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَنْجُوَ بِنَفْسي ، لِأَنَّ بَقائي دُونَ طَعامٍ يُعَجِّلُ بِهَلاكي . إِنَّ أَصْحابي لَمْ يَسْتَطيعُوا الِابْتِعادَ عَنِ الرِّجالِ الجَشِعينَ ، بَلْ قُلْ إِنَّهُمْ ما كانُوا يُرِيدُون ذٰلِكَ ، مادامَ الرِّجالُ الجَشِعُون لا يَنْقَطِعُونَ عَنْ وَضْعِ الطَّعامِ أَمامَهُمْ . وَلَمْ يُكَلِّفْ

أَحَدٌ مِنَ الجَشِعينَ نَفْسَهُ النَّظَرَ إِلى رَجُلٍ هَزيلٍ مِثْلي . وَقَدْ يَسَّرَ ذٰلِكَ سُبُلَ النَّجاةِ أَمامي ، عِنْدَما اجْتَبَأْتُ ذاتَ يَوْمٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، وَمِنْها سِرْتُ إِلى الغابَةِ ، حَيْثُ وَجَدْتُ بَعْضَ الفاكِهَةِ الَّتي أَعْرِفُها ، وَالَّتي لا يُشَكِّلُ تَناوُلُها خَطَرًا .

وَأَفادَتْني الفاكِهَةُ في اسْتِعادَةِ قُوَّتي ، فَاسْتَطَعْتُ الإِسْراعَ في سَيْري . وَقَدْ قَضَيْتُ أُسْبوعًا ، أَسيرُ مَرَّةً وَأَتَوَقَّفُ أُخْرى لِتَناوُلِ الفاكِهَةِ وَشُرْبِ الماءِ ، إِلى أَنْ لَقِيتُ جَماعَةً مِنَ الرِّجالِ . وَعِنْدَما رَآني أُولٰئِكَ الرِّجالُ أَسْرَعُوا إِلَيَّ ، وَسُيوفُهُمْ في أَيْديهِمْ ، فَصَرَخْتُ فيهِمْ : « أَرْجُوكُمْ أَنْ تَسْتَمِعُوا إِلَيَّ . »

وَكَشَفْتُ لَهُمْ عَنْ هُوِيَّتي وَحَدَّثْتُهُمْ عَنِ البَلَدِ الَّذي قَدِمْتُ مِنْهُ . وَأَخْبَرْتُهُمْ بِأَنَّ مِنْ عادَتِهِمْ أَنْ يَجيئُوا مَرَّةً كُلَّ عامٍ إِلى تِلْكَ الجَزيرَةِ وَلٰكِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ شَرَّ الرِّجالِ الجَشِعينَ .

سَرْجُ المَلِكِ

وَمِمَّا قالُوهُ لي : « لَمْ تُكْتَبِ السَّلامَةُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ وَطِئَتْ قَدَماهُ أَرْضَ هٰذِهِ الجَزيرَةِ . » وَاصْطَحَبُوني مَعَهُمْ عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلى جَزيرَتِهِمْ . وَقَدْ سَمِعَ المَلِكُ حِكايَتي ، وَرَغِبَ في التَّحَدُّثِ إِلَيَّ . وَقَدْ كانَ مِثالًا لِلطِّيبَةِ وَكَرَمِ الخُلُقِ ، حَتّى إِنَّهُ خَصَّصَ لي غُرْفَةً في قَصْرِهِ الفَخْمِ . وَكَثيرًا ما كانَ يَسْتَدْعِيني لِلِاسْتِماعِ إِلى مُغامَراتي في رِحْلاتي ، وَأَحادِيثي عَنْ مَدينَةِ بَغْدادَ العَظيمَةِ . وَالحَقُّ يُقالُ إِنَّ عاصِمَةَ مَمْلَكَتِهِ كانَتْ عامِرَةً بِأَهْلِها ، غَنِيَّةً في كُلِّ ناحِيَةٍ مِنْ نَواحي الحَياةِ إِلَّا في شَيْءٍ واحِدٍ . فَقَدْ كانَ النّاسُ يَرْكَبُونَ الخَيْلَ بِلا سُروجٍ ، مَعَ أَصالَةِ تِلْكَ الخُيولِ وَبَراعَةِ فُرْسانِها .

وَقَدْ سَأَلْتُ ٱلْمَلِكَ يَوْمًا : « أَيُّها ٱلْمَلِكُ ٱلْعَظِيمُ ، لِمَ لا تَسْتَعْمِلُ ٱلسَّرْحَ عِنْدَ رُكُوبِكَ ٱلْحِصانَ ؟ »

دهِشَ ٱلْمَلِكُ وَسَأَلَني : « مادا تَقُولُ ؟ ما هُوَ ٱلسَّرْحُ ٱلَّذي تتحدَّثُ عَنْهُ ؟ »

وَكانَ جَوابي : « هَلْ تَأْذَنُ لي يامَوْلاي أَنْ أَصْنَع لكَ سَرْجًا ، إِذا ما اسْتَعْمَلْتَهُ ، وَجَدْتَ فيهِ ٱلْجَوابَ عَنْ سُؤالِكَ ، وَلَمَسْتَ عَظِيمَ فوائِده ؟ »

وَسَرْعانَ ما صَنَعْتُ سَرْجًا فاخِرًا ، وَوَضَعْتُهُ على ظَهْرِ حِصانِه . وبَعْدَ أَنْ رَكِبَهُ سُرَّ بِٱلسَّرْجِ كثيرًا . وانْهالَتْ عليَّ بَعْدَها طلباتُ رِجالِ حاشِيَةِ ٱلْمَلِكِ وَعِلْيَةِ ٱلْقَوْمِ لِصُنْعِ ٱلسُّرُوجِ ، فَكَسَبْتُ ٱلأَمْوالَ ٱلْكَثيرَةَ مِنْ صناعتِها ، عِلاوَةً على ٱلسَّعادَةِ ٱلَّتي كُنْتُ أَحُسُّ بِها لِلصَّداقَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَرْبُطُني بِٱلْمَلِكِ وَرِجالِهِ .

زَواجِـي

ذاتَ يَوْمٍ ، قالَ لِيَ ٱلْمَلِكُ : « لَقَدْ أَصْبَحْتَ واحِدًا مِنّا ، تُوليكَ صادِق حُبِّنا كَأَخٍ لَنا . وَلٰكِنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا يُقَرِّبُكَ مِنّا أَكْثَرَ . »

وبِكُلِّ أَدَبٍ قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها ٱلْمَلِكُ ٱلْعَظِيمُ ! أَمْرُكَ مُطاعٌ ، وَلَنْ أَرُدَّ لَكَ أَمْرًا . »

أَتْلَجَتْ كَلِماتي صَدْرَهُ ، فَٱبْتَسَمَ قائِلًا : « عَلَيْكَ بِٱلزَّواجِ يابُنَيَّ ! فَفي

ٱلْمَدينَةِ فَتاةٌ عَلى جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ ٱلْجَمالِ وَٱلثَّراءِ ، وَهِيَ ٱبْنَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، وَهٰأَنَذا أَدْعوكَ إِلى ٱلاقْتِرانِ بِها . »

وَسَرْعانَ ما تَمَّتْ مَراسِمُ ٱلزَّواجِ ، وَزُفَّتِ ٱلْعَروسُ إِلَيَّ . وَكَما قالَ ٱلْمَلِكُ فَإِنَّ زَوْجَتي كانَتْ ذاتَ ثَرْوَةٍ وَجَمالٍ ، وَكانَتْ تَتَمَتَّعُ بِما هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقَدْ وَجَدْتُ فيها ما جَعَلَني أُحِبُّها وَتُحِبُّني . وَعِشْنا في مُنْتَهى ٱلسَّعادَةِ لِعِدَّةِ أَسابيعَ .

وذاتَ يَوْمٍ ماتَتْ زَوْجَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ مُعَزِّيًا ، عَمَلًا بِما تَقْتَضيهِ رَوابِطُ ٱلصَّداقَةِ ساعَةَ ٱلْحُزْنِ . وَلٰكِنّي وَجَدْتُهُ لَيْسَ حَزينًا فَقَطْ ، بَلْ مَريضًا . وَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْ فِراشِهِ ، خاطَبْتُهُ بِقَوْلي : « ياصَديقي ! إِنَّها إِرادَةُ ٱللهِ ، وَلا يَحُسُّ بِٱلإِنْسانِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ إِلى ٱلْحُزْنِ ، إِذا فَقَدَ زَوْجَتَهُ . وَما عَلَيْكَ إِلَّا ٱلصَّبْرُ ، وَتَعْويدُ نَفْسِكَ عَلى ٱلْعَيْشِ بِدونِها . »

كَهْف ٱلْمَوْتـى

كانَتْ مُفاجَأَةً لي عِنْدَما رَدَّ عَلَيَّ قائِلًا : « مادا تَقولُ ياصاحِبي ؟ أَلا تَعْرِفُ ٱلْقانونَ ٱلَّذي يَحْكُمُنا في هٰذا ٱلْبَلَدِ ، وَٱلَّذي يَقْضي بِأَنْ يُدْفَنَ ٱلْحَيُّ مَعَ ٱلْمَيِّتِ ؟ فَٱلزَّوْجَةُ إِذا ماتَ زَوْجُها ، دُفِنَتْ مَعَهُ حَيَّةً ، كَما أَنَّ ٱلزَّوْجَ إِذا ماتَتْ زَوْجَتُهُ ، دُفِنَ مَعَها حَيًّا . اعْلَمْ ياأَخي ، إِنَّهُمْ سَيُلْقُونَ بي بَعْدَ ظُهْرِ هٰذا ٱلْيَوْمِ ، في كَهْفِ ٱلْمَوْتى إِلى أَنْ أَموتَ . »

وبَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ، حُمِلَ جُثْمانُ ٱلزَّوْجَةِ خارِجَ ٱلْمَدينَةِ ، إِلى مَكانٍ

في جانبِ ٱلجَبَلِ ، وَأزاحُوا صَخْرَةً كَبيرةً عَنْ مَدْخَلِ ٱلكَهْف ، وَٱلْقَوْا بِالحُطَامِ فيهِ . ثُمَّ جاءُوا بِالْحِبالِ واستَخْدَموها في إنْزالِ صَديقي في كَهْف ٱلمَوْتى ، إلى جانِبِ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ أعادوا ٱلصَّخْرة إلى مكانِها . وكانَ ٱلحُرّاسُ يَمْنَعونَ مَنْ يُحاوِلُ ٱلاقْترابَ مِنَ ٱلكَهْف . ولَمَّا سَأَلْتُ ٱلمَلِكَ عَنْ ذٰلكَ أجابَني : « إنَّها عادةٌ قَديمةٌ مُتوارثةٌ ، ولا أستَطيعُ إلْغاءَها . »

في كَهْفِ ٱلمَوْتى

لَمْ يَمْضِ عَلى رَواحي ٱلسَّعيد سوى بِضْعةِ أسابيع ، حتّى مَرِضتْ زَوْجتي فترةً ثُمَّ ماتتْ . وحضرَ ٱلقَوْمُ لنَقْلِ جُثمانِها إلى كهْفِ ٱلمَوْتى ، فقُلْتُ لَهُمْ : « لَنْ تأْخُذوني معها إلى ٱلقبْر ، لِأَنّي لستُ مِنْ بلدِكُمْ ، وَلا يَنْطبِقُ عليَّ قانُونُكُمْ . » غيْرَ أنَّهُمْ أخذوا يُواسُونَني في مُصابي وطلبوا إليَّ ٱلتَّحلّي بِٱلشَّجاعة ، وأبْلغوني أنَّهُ لا بُدَّ أنْ ٱلْحق بِزَوْجتي لأنّي صِرْتُ – في نَظَرِهِمْ – واحِدًا مِنْهُمْ .

لَمْ أشْعُرْ إلّا وقَدْ نَفّذوا ٱلحبال حَوْل جسْمي ، وحمَلُوني إلى ٱلكهْف . وهُناكَ حَلّصوني مِن ٱلقُيودِ ، وأنْزعموني على ٱلنُّزولِ إلى ٱلكَهْف باسْتخْدام ٱلحِبالِ . وسَدُّوا بابَهُ بِٱلصَّخْرة ، فلَمْ أعُدْ أرى شيْئًا داخل ٱلكهْف . وبعْدَ قَليلٍ لاحَ لي شُعاعٌ ضَئيلٌ مِنَ ٱلنُّورِ ، وَتبيَّنَ لي أنَّهُمْ كانوا يَدْفِنُونَ مَعَ ٱلمَوْتى جواهِرَهُمْ وَحُلِيَّهُمْ . واسْتطَعْتُ أنْ أُمَيِّزَ ٱلكثير مِن ٱلحِبالِ ٱلتي كانتْ تُسْتَعْمَلُ في إنْزالِ مَنْ يُدْفَنُون أحْياءً .

فجأةً سمعتُ حركةً في الكهف ، ورأيتُ حيوانًا يُشبهُ التَّعلب . ولمَّا حاولتُ الإمساكَ بهِ عضَّ يدي وأفلت مِنِّي هاربًا . وذعاني هذا الحادثُ إلى التَّفكيرِ : « إنَّ وُجودَ الحيواناتِ دليلٌ على وُجودِ فُتحةٍ تدخُلُ منها إلى الكهف . وعليَّ أنْ أجعلَ منها دليلي في الخُروج منهُ . »

جُحْرُ الثَّعلب

حاولتُ أنْ أربيَ حبلًا حولَ أحدِ هذهِ الحيوانات ، ولكنّي لمْ أفلح ؛ فكرَّرتُ المُحاولةَ عشراتِ المرَّاتِ . وأخيرًا رميتُ الحبلَ فالتفَّ حولَ أحدِها فحرى ، وتبعتُهُ والحبلُ في يدي ، إلى نهايةِ الكهف ، حتى وجدتُ فُتحةً يستطيعُ الثعلبُ أنْ يمرَّ منها ، ولكنْ تعذَّر عليَّ ذلك .

أخذتُ في توسيعِ الفُتحةِ ، واستغرقَ ذلكَ منِّي وقتًا طويلًا ، ونجحتُ في الخُروج حيثُ الهواءُ الطلقُ والسَّماءُ الصَّافيةُ . ووجدتُ نفسي قريبًا من البحرِ أسفلَ جُرفٍ صخريٍّ عالٍ لا يُمكنُ تسلُّقهُ صعودًا أو نزولًا . ثمَّ وجدتُ الماءَ في أحدِ النُّهيرات ، وشجرةً فاكهةً ، فأكلتُ وشربتُ ، وجلستُ طلبًا لِلرَّاحة .

جعلتُ أفكِّرُ : « عليَّ بالانتظارِ إلى حينِ قدومِ سفينةٍ لا تكونُ وجهتُها المدينةَ التي كنتُ فيها ، ما دامَ الطَّعامُ والماءُ متوفِّرَيْن . أيحسُنُ بي أنْ أعودَ إلى كهفِ الموتى لأُخرجَ بعضَ الجواهر ؟ ولكنْ إذا عُدتُ فهلْ أستطيعُ أنْ أستدلَّ على طريقِ الخُروج ؟ »

الجواهرُ والسَّفينةُ

تذكَّرتُ الحبالَ فقلتُ لنفسي : « لوْ صنعتُ حبلًا طويلًا مِنْ هذهِ الحبالِ القصيرةِ ، فسيُساعدُني في الدُّخولِ إلى الكهفِ والخُروجِ منهُ . » وعلى الفورِ صنعتُ الحبلَ ، ودخلتُ الكهفَ عدَّةَ مرَّاتٍ ، وأخرجتُ آلافَ الجواهرِ ، وصنعتُها في أكياسٍ صنعتُها مِنَ القُماشِ الذي كانَ ملفوفًا حولَ أجسادِ الموتى . وبقيتُ في انتظارِ سفينةٍ تمرُّ .

وجاءَ الفرجُ ، عندما رستْ سفينةٌ لتتزوَّدَ بالماءِ . وروَيْتُ للرُّبَّانِ بعضَ ما حدثَ لي ، دونَ أنْ أتعرَّضَ لقصَّتي في المدينةِ خشيةَ أنْ يكونَ بينَ الرُّكَّابِ أحدٌ من سُكَّانِها . وقدَّمتُ بعضَ الجواهرِ هديَّةً إلى الرُّبَّانِ ، فاعتذرَ عنْ عدمِ قبولِها قائلًا : « إنَّنا نحنُ أبناءَ البصرة إذا وجدنا مَنْ قذفتْ بهِ الرِّيحُ أوِ البحرُ على أيَّةِ جزيرةٍ ، حملْناهُ على سُفُنِنا وقدَّمْنا لهُ الطَّعامَ والماءَ والكساء . ولا نرحلُ عنهُ حتَّى نوصلَهُ إلى بلدهِ . وليسَ مِنْ شيَمِنا أنْ نتقاضى أجرًا ، أيًّا كانَ ، من أحدٍ . وكلُّ ما نعملُهُ ليسَ إلَّا في سبيلِ اللهِ . »

نهايةُ الرِّحلةِ الرَّابعةِ

سعتِ السَّفينةُ بمياهِ البصرةِ في الوقتِ المُحدَّدِ لها ، فعادرْتُها إلى بغدادَ ، وقد فرحَ بي أهلي وأصدقائي . وتصدَّقْتُ بالمالِ والثِّيابِ والطَّعامِ على الفُقراءِ ، وقدَّمتُ العونَ للمُحتاجينَ

عُدْتُ وَقُلْتُ : « لَنْ أُغادِرَ مَدينَتي بَعْدَ ٱلآنَ ، وَسَتَكونُ هٰذِهِ آخِرَ رِحْلَةٍ لي في دُنْيايَ . »

وَلٰكِنّي نَقَضْتُ ٱلعَهْدَ ، وَلَمْ أَلْتَزِمْ بِما وَعَدْتُ ، وَلي حَديثٌ مَعَكُمْ أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، غَدًا إِنْ شاءَ ٱللّٰه .

الرِّحْلَةُ ٱلخامِسَةُ

تَذَكَّرْتُ ، في حينِهِ ، مَحاسِنَ رِحْلاتي ، وَلَمْ أَتَذَكَّرْ مَساوِئَها .

ففي يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيّام ، رَأَيْتُ جَماعَةَ يَسُوسَ سَفينَةً كَبيرَةً ، فَٱشْتَرَيْتُها مِنْهُمْ ، وَأَبْحَرْتُ عَلَيْها ، وَمَعي بَعْضُ ٱلتُّجّار ، في رِحْلَتي ٱلخامِسَة . وَقَدْ تَنَقَّلْنا مِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ ، وَمِنْ حَريرَةٍ إِلى أُخْرى نَبيعُ وَنَشْتَري وَنُمَتِّعُ أَعْيُنَنا بِجَمالِ ٱلطَّبيعَة .

وَفي أَحَدِ ٱلأَيّام ، رَسَتْ بِنا ٱلسَّفينَةُ عَلى حَريرَةٍ كَبيرَةٍ ، لَمْ نُشاهِدْ فيها إِنْسانًا أَوْ حَيَوانًا أَوْ نَباتًا . وَنَزَلَ ٱلتُّجّارُ إِلى ٱلياسَةِ لِيَجُولُوا في ٱلحَريرَةِ . بَيْنَما هُمْ يَجُولُون ، تَوَقَّفُوا عِنْدَ شَيْءٍ ضَخْمٍ ، أَبْيَضِ ٱللَّوْنِ ، شَديدِ ٱلشَّبَهِ بِٱلْقِبَّة . فَصَرَخْتُ فيهِمْ أَلّا يَمَسُّوا ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ لِأَنَّهُ بَيْضَةُ رُخٍّ . وَنَصَحْتُهُمْ بِٱلِٱبْتِعادِ عَنْها قَبْلَ فَواتِ ٱلأَوانِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا إِلى نُصْحي ، بَلْ أَخَذُوا يُحْدِثُونَ بِها ثَقْبًا ، لِيَعْرِفُوا ما بِداخِلِها ؛ وَإِذا بِصَوْتٍ كَٱلْبُكاءِ يَنْبَعِثُ مِنْ داخِلِ ٱلبَيْضَةِ . كانَ فَرْخُ ٱلرُّخِّ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ ٱلأَخيرَة . وَمِنْ أَعالي ٱلجَوِّ سُمِعَ صُراخُ رِدًّا عَلى صُراخِ فَرْخِ ٱلرُّخِّ . وَٱنْقَلَبَ ٱلنَّهارُ إِلى لَيْلٍ ، حينَما حامَ في ٱلجَوِّ رُخٌّ ضَخْمٌ وَرَفيقَتُهُ ، فَوَقَعَتْ هَلاكَنا جَميعًا ، وَلٰكِنَّهُما طارا بَعيدًا . وَفي ٱلحالِ ، طَلَبْتُ مِنَ ٱلتُّجّارِ ٱلعَوْدَةَ بِأَقْصى سُرْعَة ، لِنَبْتَعِدَ عَنِ ٱلحَريرَةِ وَنَجْوَ بِأَنْفُسِنا .

سفينتي تتحطّم

استمع التُّجّارُ إلى نصيحتي ، ووُضعتْ سفينةُ إلى غرضِ البحرِ وقد حضر ببالي أنْ أسأل نفسي : « هل سألتُ منهما ؟ » وقبل أنْ أتمّ سؤالي ، شاهدْنا الرُّخَيْن يعودان ، يحملُ أحدُهما صخرةً كبيرةً بحجم البيت . وما هي إلّا لحظاتٌ ، حتّى أخذ رُخٌّ يحومُ فوقنا ، ثمّ ألقى بالصخرة عالياً ، ولكنّ الرُّبّان استطاع أنْ يتفاداها ، فسقطتْ في البحر ، وارتعتْ مياهُهُ ، وكأنّها الجبالُ ، وأخذتْ تقذفُ بالسفينةِ هنا وهناك .

لم يستطع الرُّبّانُ أنْ يتفادى الصخرةَ الثانيةَ التي سقطتْ على السفينة ، فكتبت السطرُ الأخير من حياة سفينتي الحديدية . وقد لقي معظمُ التُّجّار والبحّارة حتفهم . وكلُّ ما أذكرُهُ أنّي وجدتُ نفسي في صراعٍ مع البحرِ ، لم يُنقذْني منهُ إلّا لوحٌ خشبيٌّ من حطامِ السفينةِ كانَ طافيًا على مقربةٍ منّي ، فتشبّثتُ به .

كانَ لهذا اللّوحِ الخشبيِّ الفضلُ في إنقاذي ، وحاصةً عندما دفعني الرّيحُ والأمواجُ إلى شاطئٍ جزيرةٍ بلغتُهُ بعد أربعةِ أيّامٍ بلياليها . وجدتُ جذولَ ماءٍ عذبٍ ، وأشجارَ فاكهةٍ . وشرعتُ أقطفُ الثّمارَ وآكلُها ، وأشربُ من ماءِ النّهرِ .

شيخُ البحرِ

سرتُ أبحثُ في الجزيرةِ ، لعلّي أجدُ بشرًا يقيمون فيها . ولم يطُلْ بي المسيرُ ، إذ رأيتُ عجوزًا بدا لي مريضًا واهنًا . عندها قلتُ لنفسي : « تُرى أيكونُ هذا العجوزُ بحّارًا تحطّمتْ سفينتُهُ ، وقذفتْ به الأمواجُ إلى هذه الجزيرةِ ؟ »

كانَ العجوزُ يجلسُ على مقربةٍ من جذولِ الماء . ولمّا اقتربتُ منهُ ، حيّيتُهُ ولكنّهُ لم ينطقْ بكلمةٍ . وكلّمتُهُ ثانيةً ، فالتزمَ الصمتَ ، واكتفى بتحريكِ يدِهِ ناحيةَ جذولِ الماءِ . وقد ظننتُ أنّهُ يريدُني أنْ أعبُرَ بهِ الجذولَ إلى الضفّةِ الأخرى ، فحملتُهُ على ظهري ، استعدادًا لاجتيازِ الماء . لكنّهُ فجأةً أحاطَ عنقي بساقيْهِ اللّتيْنِ كانتا — على الرّغمِ من هُزالِهما — صلبتيْنِ قويّتيْنِ .

ولمّا حاولتُ إزالتَهُ ، ركلني بقدمه ، وشدّ على عنقي بيديْهِ وساقيْهِ حتّى كاد يعصرُها ، وارتسم شبحُ الموتِ أمامَ عينيّ . وقد بقيتُ على تلكَ الحالِ أيّامًا . وكنتُ في الليلِ أنامُ على الأرضِ وساقاهُ حولَ عنقي ، وفي النّهارِ ما كنتُ أتجوّلُ فاكهةً أو أشربُ ماءً إلّا حسبَ مشيئتِهِ . ولم يكلّمني قطُّ ، بل كان يعمدُ إلى ركلي بقدمهِ لأفعلَ ما يريدُهُ منّي .

وذات يومٍ ، وجدتُ فاكهةً مجفّفةً كنتُ قد سمعتُ عنها في بعضِ أسفاري . فتناولتُ ثمرةً وتظاهرتُ بأنّي آكلُ منها ، ثمّ رحتُ أتمايلُ فرحًا ، وأقولُ : « ما أحلى هذهِ الثّمرة ! آهٍ لو آكلُ منها الكثيرَ ! » ولمّا سمعني

ٱلعجوزُ ، ركلني بقدمهِ ، وأشار إلى ٱلفاكهة . فأعطيتُهُ مِنها . وَلَمَّا ٱستحسن مذاقها ، أخذ يأكُلُ مِنها بشرهٍ إلى أنْ تراخَتْ ساقاهُ مِنْ حَولِ عُنُقي ، وَفَقَدَ وَعْيَهُ عِنْدَئِذٍ ٱلقَيْتُ به أرضًا ، وَدَقَقْتُ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ .

سِرْتُ إلى شاطئِ ٱلبَحْر حَيْثُ وجدْتُ سفينةً ، نَزَل بَعْضُ بَحَّارَتِها ليتوَضَّؤوا بالماء ٱلعذْب . ولَمَّا رَوَيْتُ لهُمْ ما حَدث لي ، قالُوا : « إنَّ ٱلعجوز ٱلذي رأيْتَهُ ، هُوَ شيْخُ ٱلبَحْر . وَما مِنْ أحدٍ قبلك ، لفَّ ٱلشَّيْخُ ساقَيْهِ حَوْلَ عُنُقه ، إلَّا مات . لقدْ قضَى على كثيرٍ من ٱلبحَّارة بِنفْسِ ٱلطَّريقةِ . وفي كُلِّ مرَّةٍ يقْصِدُ ٱلجزيرةَ لا بُدَّ أنْ يكون مَعَنا تسْعةٌ أوْ عشرةٌ مِنَ ٱلبحَّارة لِخوْفنا مِنْ شيْخ ٱلبَحْرِ . »

سَأَلْتُهُمْ : « لِماذا إذًا تجيئونَ إلى هٰذِهِ ٱلجَزيرةِ ؟ »

أجابُوني : « نجيءُ لِنَجْمع ثِمارَ حوْر ٱلهِنْد . تعال معنا ومعكَ أكْياسٌ كبيرةٌ لجوْزِ ٱلهِنْد ، وكيسٌ صغيرٌ مملوءٌ بِٱلحِجارةِ ٱلصَّغيرة . »

القُرودُ وَجَوْزُ ٱلهِنْدِ

أخذْتُ معي ما طَلَبوهُ مِنّي ، وَسِرْنا إلى غابةٍ مِنْ أشْجارِ جَوْزِ ٱلهِنْدِ ، وَهِيَ أشْجارٌ شديدةُ ٱلِارتفاعِ ، مَسْاءُ ٱلجُذوعِ لا يَسْتطيعُ أحَدٌ تسلُّقَها ، وَجميعُ ثمارها في أعْلاها حَيْثُ تَرَى ٱلقُرودَ .

بدأْنا نَرْجُمُ ٱلقُرودَ بِٱلحِجارةِ ، فَاغْتاظَتْ وَأخذَتْ تَقْذِفُنا بِثمارِ جَوْزِ

ٱلهند وتجمعت لديها كمية كبيرة في وقت ليس بطويل ، وأخذنا نشرع فشورها ، ونملأ بالثمار أكياسا . وعندما أخذت السفينة حمولتها ، أبحرت بنا إلى جزر القمر والجزر القريبة منها ، حيث بعنا ما معنا بثمن مرتفع ، واشترينا بالثمن أخشابا وأشياء أخرى غيرها حملناها إلى البصرة .

وقد عدت من رحلتي هذه ، إلى وطني ، أكثر ثراء مما كنت قبل قيامي بهذه الرحلة وفي بغداد ، تصدقت على الفقراء والمحتاجين وقطعت على نفسي عهدا ألا أعود إلى البحر . ولكني عدت فأخلفت الوعد ، وسأحدثكم غدا ، إن شاء الله ، عما فعلت .

الرحلة السادسة

لم تكن لي رغبة في معاودة ركوب البحر ، ولكن رغبتي الشديدة في مشاهدة بعض بلدان الهند ، حملتني على عدم الالتزام بما وعدت . ولم تمض إلا أيام ، حتى جهزت نفسي للسفر ، واشتريت حاجتي من البضائع ، واصطحبت بعض الحدم لمساعدتي في رحلتي والتصقت القافلة برا ، وزرنا كثيرا من المدن ، حيث كنت أبيع فيها وأشتري . وواصلنا سيرنا حتى بلغنا مصب نهر كبير عظيم ، حيث وجدت سفينة تؤهلني على القيام برحلة طويلة إلى الجنوب والشرق .

كانت تلك الرحلة بصورة مشؤومة فقد هبت علينا ريح عاصفة ، فانحرفت السفينة عن مسارها . وتهنا في عرض البحر ، وأصبحنا تحت رحمة الريح ، تسوقنا أمامها ، كما يسوق الراعي قطيع الغنم ، وبأقصى سرعة

ولم يتمالك الربان نفسه حين وجد يصرخ قائلا : « إنا ميتون لا محالة » ثم انتزع عمامته من فوق رأسه ، وألقى بها أرضا ، وأخذ يضرب رأسه بكلتا يديه ، وسمعته لا يفتأ يقول : « إنها نهايتنا ! هل ترون ذلك الجبل الشاهق ؟ إن فيه كهفا يتسع لمياه البحر بما فيها من سفن . ولم يقدر لإنسان — حتى الآن — أن يخرج منه حيا »

ٱلإنسياقُ إلى ٱلكَهْف

حاول ٱلتجّارةُ أنْ يخْرجوا بالسّفينةِ مِنْ بين ٱلأمواج ٱلمتلاطمةِ ؛ ولٰكنّهُمْ فشلوا . وَسَرْعانَ ما أحدثتْ سفينتُنا تقْتربُ مِنَ الكهْف . وَمياهُ ٱلبحْرِ تتدفّقُ في خوْفه ، وبسُرْعةٍ مُتزايدةٍ . وَما هِيَ إلّا دقائقُ مَعْدودةٌ ، حَتّى ٱرتطمتِ ٱلسّفينةُ بحُذْرِنهِ ٱلصّخْريّةِ ، وَتحطّمَتْ تمامًا . وَاسْوَدَّ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَنا .

أحدْتُ أحدّثُ نفْسي قائلًا : « إمّا أنّي قدْ متُّ فِعْلًا أوْ أنّني مُشْرِفٌ على ٱلمَوْت . »

كُنْتُ في ظلامٍ دامسٍ . لا أرى ما يدورُ حوْلي ، لأنّ كُلَّ شيْءٍ كان أشدّ سَوادًا من ٱللّيْلِ ٱلبهيمِ . لٰكِنّي كُنْتُ أسْمعُ صوْت ماءٍ يَجْري جرْيًا سريعًا ، وَأسْمعُ رياحًا تهُبُّ . وَهٰأنذا أتحرّكُ فوْق جسْمٍ صُلْبٍ ، وَليْس في ٱلماء . إذًا أيْنَ أنا ؟ لَقدْ أصْبحَتِ ٱلدُّنيا ظلامًا في ظلامٍ ، وطالتْ رِحْلتي في ذٰلكَ ٱلمكانِ ٱلسُّفليِّ ٱلأسْودِ . وَاستسْلمْتُ لنوْمٍ عميقٍ .

سَرْنديب

لَمْ أسْتيْقظْ إلّا على أصْواتٍ تَصيحُ وَتصْرُخُ حوْلي . وَلمّا فتحْتُ عيْنَيَّ ، وَجدْتُ نفْسي راقدًا على ظَهْري فوْقَ لَوْحٍ مِنَ ٱلخشَبِ ، عِنْدَ ضفّةِ نَهْرٍ عظيمٍ ، وَحوْليَ جمْعٌ مِن ٱلنّاسِ يَنْظُرونَ إليَّ بدهْشةٍ ، وَكانوا هُمْ مصْدر ٱلصُّراخِ ٱلّذي أيْقظَني .

سَألْتُ ٱلواقفينَ : « أيْنَ أنا ؟ » إلّا أنّهُمْ لَمْ يُجيبوا عَنْ سُؤالي لِجَهْلِهِمُ ٱللُّغة ٱلعربيّةَ . وفي ٱلحالِ أرْسلُوا يَطْلُبون رجُلًا يَعْرفُ ٱلعربيّةَ بَعْضَ الشّيْءِ . وحالَ وُصولهِ أنْبأني بأنّي في بلادِ مَلِكِ سَرْنديب (سريلانكا) فحمِدْتُ ٱللهَ على أنّي في بَلَدِ مَلِكٍ عظيمٍ ، سمعْتُ عنْهُ وعنْ بلدِهِ ٱلشّيْءَ ٱلكثيرَ .

أضافَ ٱلرّجُلُ قائلًا : « نحيءُ إلى هٰذا ٱلمكانِ لتحْويلِ قنواتِ ٱلرّيِّ مِنْ هٰذا ٱلنّهْرِ إلى مزارِعنا . وَينْبعُ ٱلنّهْرُ مِنْ سِلْسلةِ ٱلجبالِ تِلْكَ . وَحتّى هٰذهِ ٱللّحْظةِ لَمْ يتسنّ لِأيِّ إنْسانٍ مِنْ هُنا أنْ يَصْعَدَ تِلْكَ ٱلجبالَ . كما لَمْ يَحْظَ أحدٌ مِنْ قِمَمِ تِلْكَ ٱلجبالِ . وَٱلآنَ ، قُلْ لي : كيْفَ وصلْتَ إلى هٰذا ٱلمكانِ ؟ »

إلـى ٱلمَلِكِ

رَويْتُ لهُ قِصّةَ رِحْلَتي ٱلسّادِسة ، وَقامَ هُوَ بِتَرْجمتها إلى ٱلحاضِرين ، وكانتْ عُيونُهُمْ مُشْتعةً عَليَّ . وما إنْ وَصَلَ إلى نِهايَتِها ، حَتّى عَلا صُراخُهُمْ ، وردّدوا كلماتٍ لَمْ أفْهمْها ، تَرْجمَها ليَ ٱلرّجُلُ كالتّالي : « عَلَيْكَ أنْ تَقُصَّ حِكايتكَ على ٱلملِكِ ، وَسأحْدُكَ إلَيْهِ في ٱلحالِ . » ثُمَّ قدّموا ليَ ٱلطّعامَ وَٱلماء ، وأرْكبوني حَوادًا . وَبَعْدَ مَسيرةِ ثَلاثةِ أيّامٍ ، بَلغْنا ٱلعاصِمةَ . وَقدِ ٱسْتقْبلني ٱلمَلِكُ في ٱلقاعةِ ٱلمَلَكيّةِ ، وَرحّبَ بي ، وَأصْغى باهْتمامٍ إلى قِصّتي . ثُمَّ أمَرَ ٱلخدَمَ بتخْصيصِ حُجْرةٍ لي تُجاوِرُ ٱلقاعةَ ٱلمَلَكيّةَ ، وتَزْويدي بأفْضلِ ٱلثّيابِ ، وَتقْديمِ أشْهى ٱلمأكولاتِ ، وَتوْفيرِ ما أحْتاجُ

إِلَيْهِ . وَكَانَ يَسْتَدْعِيني يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، لِيَسْتَمِعَ إِلَى أَحَادِيثِ رِحْلاتي السِّتِّ ، وما رافقها مِنْ أَهْوالٍ ومَخاطِر . ولَمْ يَعُدْ عَنْ بالِهِ أَنْ يَسْأَلَني عَنْ بَغْداد ، فَحَدَّثْتُهُ عَنْها بِإِفاضَةٍ .

رِسالَةٌ مِنَ المَلِكِ

ذات يَوْمٍ ، عَلِمْتُ بِوُصولِ سَفِينَةٍ إِلَى العاصِمَة ، وهي في طَرِيقِها إِلَى البَصْرَة . فَأَذِنَ لي المَلِكُ أَنْ أَرْكَبَها ومَنَحَني الهَدايا الثَّمِينَةَ مِنْ ذَهَبٍ ومَاسٍ وجَواهِر وغَيْرِها ، وسَلَّمَني رِسالَةً مَلَكِيَّةً وهَدايا ثَمِينَةً إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، الخَلِيفَةِ هارونَ الرَّشِيد . وكانَ عُنْوانُ الرِّسالَةِ المَلَكِيَّة .

« مِنْ مَلِكِ سَرَنْدِيب ، ومَلِكِ جُزُرِ الهِنْدِ الشَّرْقِيَّة ، والمَلِكِ الأَكْبَر ، إِلَى أَخِيهِ الخَلِيفَةِ هارونَ الرَّشِيدِ العَظِيم . »

وكانَتْ هَدايَاهُ إِلَى الخَلِيفَةِ مِنَ الذَّهَبِ والجَواهِر ، وأَشْياءَ أُخْرَى فائِقَةِ الجَمالِ ، جِيءَ بِها مِنْ غاباتِ سَرَنْدِيب ومَزارِعِها ، لَمْ تَرَ العَيْنُ مِثْلًا لَها في أَسْواقِ بَغْدادَ .

وكانَتْ رِحْلَتي إِلَى البَصْرَةِ مُمْتِعَةً ، خاصَّةً وأَنا أَحْمِلُ رِسالَةً مَلَكِيَّةً وهَدايا إِلَى الخَلِيفَةِ هارونَ الرَّشِيد ، الَّذي أَحْسَنَ اسْتِقْبالي ، واسْتَمَعَ إِلَى حِكاياتي ، وَتَلَطَّفَ في الحَدِيثِ مَعي .

الرِّحْلَةُ السَّابِعَة

ما كُنْتُ أَنْوي القِيامَ بِأَيَّةِ رِحْلَةٍ أُخْرَى ، أَيُّها الأَصْدِقاءُ . ولا تَنْسَوْا أَنَّ تَقَدُّمَ السِّنِّ يَدْعُوني إِلَى قَضاءِ ما تَبَقَّى مِنَ العُمْرِ في وَطَني ، بَيْنَ أَهْلي وأَحِبَّائي ، وَالعَيْشِ في بَيْتي وَبَيْنَ حَدائِقي في مُنْتَهَى السَّعادَةِ .

وفي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، وأَنا مَعَ أَصْدِقائي ، بَعَثَ إِلَيَّ الخَلِيفَةُ هارونُ الرَّشِيدُ يَسْتَدْعِيني . ولَمَّا مَثَلْتُ أَمامَهُ ، قالَ لي : « أُرِيدُكَ أَنْ تَحْمِلَ حَوائِجي وهَدايايَ إِلَى مَلِكِ سَرَنْدِيب . » فَأَجَبْتُهُ : « لَكَ مِنِّي السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! وَسَأَمْتَثِلُ إِلَى أَمْرِكَ في الحالِ . »

انْصَرَفَ رِجالُ الخَلِيفَةِ إِلَى البَحْثِ عَنْ أَحَسِّ سَفِينَةٍ ، وَأَعَدُّوها لِلسَّفَر . وعِنْدَما طابَتِ الرِّيحُ ، أَبْحَرْتُ حامِلًا حَوائِجَ الخَلِيفَةِ وأَنْفَسَ الهَدايا الَّتي يَحْدُوها المَرْءُ في أَسْواقِ بَغْدادَ والإِسْكَنْدَرِيَّةِ والقاهِرَةِ وَمُدُنِ المَغْرِب .

ولَدَى وُصُولي إِلَى سَرَنْدِيب ، اسْتَقْبَلَني المَلِكُ أَحَسَّ اسْتِقْبالٍ ، وفَرِحَ بِلِقائي أَشَدَّ الفَرَح . وَأَغْرَقَني عَنْ عَظِيمِ سَعادَتِهِ بِحُطامِ الخَلِيفَةِ وَهَدايَاهُ الَّتي لاقَتْ حُسْنَ القَبُولِ لَدَيْهِ . وكُنْتُ مَوْضِعَ رِعايَتِهِ بِما غَمَرَني مِنْ فَيْضِ كَرَمِهِ وأَخْلاقِه . وَاسْتَأْذَنْتُهُ لِلسَّفَرِ ، فَحَمَّلَني الكَثِيرَ مِنَ الهَدايا ، وفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ رِجالُ مَمْلَكَتِهِ .

القراصنة

بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ إِبْحارِنا ، خَرَجَ عَلَيْنا مِئاتُ ٱلقَراصِنة في مَضْعَةِ زَوارِقَ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلى سَفينَتِنا ، واتَّجَهوا بِها إِلى إِحْدى ٱلجُزُرِ ، وباعُونا إِلى تُجّارِها . وَكُنْتُ مِنْ نَصيبِ تاجِرٍ طَيِّبٍ أَحْسَنَ مُعامَلَتي .

سَأَلَني يَوْمًا : « هَلْ تُحْسِنُ ٱلرِّماية ؟ » ولَمّا رَدَدْتُ عليْهِ بِٱلإِيجابِ ، اسْتَأْنَفَ كَلامَهُ قائِلًا « حَسَنًا ! فالنِّظامُ ٱلمُتَّبَعُ في هٰذا ٱلبَلَدِ يُلْزِمُ كُلَّ أَسيرٍ ، بَعْدَ بَيْعِهِ ، بِأَنْ يَقوم بِصَيْدِ ٱلأَفْيالِ . وعِنْدَ بَيْعِ ٱلأَنْياب ، يَتَقاضى ٱلقَراصِنةُ جُزْءًا مِنْ أَثْمانِها . وَسَآخُذُكَ ٱللَّيْلَةَ إِلى ٱلغابَةِ لِتَبْدَأَ عَمَلَكَ هُناكَ . »

صَيْدُ ٱلأَفْيالِ

وفي ٱلغابَةِ ، طَلَبَ إِلَيَّ صُعودَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ قال : « عَلَيْكَ بِالانْتِظارِ إِلى حِينِ ٱقْتِرابِ ٱلأَفْيالِ ، فَتُطْلِقُ بَعْدَها سَهْمَكَ على أَحَدِها . وسَأَجيئُكَ غَدًا صَباحًا لِأَعودَ بِكَ وَنابِي ٱلفيلِ إِلى ٱلمَدينَةِ . »

وَٱنْتَظَرْتُ فَوْقَ ٱلشَّجَرَةِ طَوِيلًا ، إِلى أَنِ ٱقْتَرَبَ فيلٌ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ، وَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ سَهْمًا فَقَتَلْتُهُ . وَفي ٱلصَّباحِ جاءَني ٱلتّاجِرُ ، وَسُرَّ كَثيرًا عِنْدَما رَآني وَرَأَى جُثَّةَ ٱلفيلِ . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ سُرورِهِ بِقَوْلِهِ : « يَسُرُّني أَنَّكَ مِنْ خِيرَةِ ٱلرُّماةِ ، وَقَدْ أَحْسَنْتَ صُنْعًا بِقَتْلِكَ إِيَّاهُ ، فَلَوْ لَمْ تَقْتُلْهُ ، لَقَتَلَكَ . »

وَبَعْدَ ظُهْرِ ذاكَ ٱليَوْمِ ، لَقِيتُ رَجُلَيْنِ أَسَرَهُما ٱلقَراصِنةُ مِنْ سُفُنٍ أُخْرى . وَكانَ عَمَلُهُما مِثْلَ عَمَلي وَهُوَ صَيْدُ ٱلأَفْيالِ . وَدارَ ٱلحَديثُ بَيْنَنا ، وَمِمّا

قالا : « إنّنا لا نطْمَعُ في ٱلعَيْشِ طَويلًا ، حَتّى وَلَوْ بَرَعَ ٱلواحِدُ مِنّا في ٱلصَّيْدِ ، لِأَنَّ ٱلأَفْيالَ لا يُؤْمَنُ جانِبُها . وَٱلمَعْروفُ عَنِ ٱلفيلِ أَنَّهُ حَيوانٌ ذَكيٌّ ؛ وَلا غَرابَةَ أَنْ تَثْأَرَ ٱلأَفْيالُ لِقَتْلاها مِنْ قاتِليها . »

فَكَّرْتُ فيما سَمِعْتُهُ مِنْهُما ، وَقُلْتُ لِنَفْسي : « يَنْبَغي أَلّا أَصْعَدَ إلى ٱلشَّجَرَةِ مَرَّتَيْنِ ؛ كَما يَجِبُ أَنْ أَتَحاشى إطْلاقَ ٱلسِّهامِ عَلى قَطيعٍ مِنْها ، وَعَلَيَّ أَلّا أُخْطِئَ ٱلهَدَفَ وَأَنْ أُصيبَ مِنَ ٱلفيلِ مَقْتَلًا . »

مَضى عَلَيَّ زَمَنٌ طَويلٌ وَأَنا أَصْطادُ فيلًا في كُلِّ لَيْلَةٍ . وَكانَ سُرورُ ٱلتّاجِرِ كَبيرًا ، عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « إنَّكَ أَفْضَلُ صَيّادٍ عِنْدي . وَٱعْتِبارًا مِنْ هٰذا ٱليَوْمِ سَيَكونُ نَصيبُكَ ناباً مِنْ كُلِّ عَشَرَةٍ . وَإِذا تَجَمَّعَ لَدَيْكَ مِئَةُ نابٍ ، أَطْلَقْتُ سَراحَكَ لِتَعودَ إلى بَلَدِكَ . »

وَعِنْدَما بَلَغَ ما لَدَيَّ قَرابَةَ مِئَةِ نابٍ ، كُنْتُ عَلى ٱلشَّجَرَةِ وَأَطْلَقْتُ سَهْمًا عَلى فيلٍ ، وَلٰكِنّي لَمْ أُصِبْ مِنْهُ مَقْتَلًا .

وَفي ٱللَّيْلَةِ ٱلتّالِيَةِ ، ٱمْتَلَأَتِ ٱلغابَةُ بِضَجيجِ مِئاتِ ٱلأَفْيالِ ٱلَّتي كانَتْ تَبْحَثُ عَنّي . وَسُرْعانَ ما أُحاطَتْ بِشَجَرَتي ، فَصَعِدْتُ إلى أَعْلاها . ثُمَّ أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ قَليلًا قَليلًا ، وَمَعَ هٰذا لَمْ أُحاوِلْ إطْلاقَ سِهامي عَلَيْها . وَأَخيرًا لَفَّتْ خَراطيمَها حَوْلَ ٱلشَّجَرَةِ وَٱقْتَلَعَتْها مِنْ جُذورِها ، وَحَمَلَني أَكْبَرُها عَلى ظَهْرِهِ . وَسارَتْ قافِلَةُ ٱلأَفْيالِ مِنْ وادٍ إلى وادٍ ، وَبِشَكْلٍ عَسْكَريٍّ بِحَيْثُ كانَ ٱلواحِدُ وَراءَ ٱلآخَرِ .

وادي ٱلأَفْيـالِ

وَفي وادٍ يَقَعُ بَيْنَ ٱلجِبالِ ، تَوَقَّفَتِ ٱلأَفْيالُ عَنِ ٱلسَّيْرِ . عِنْدَها تَذَكَّرْتُ ما قَدْ سَمِعْتُهُ في زَماني بِأَنَّ جُموعَ ٱلأَفْيالِ تَذْهَبُ إلى مَكانٍ خاصٍّ وَتَمُوتُ فيهِ بِشَكْلٍ جَماعيٍّ . وَكُنْتُ لا أُصَدِّقُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ ، ها قَدْ تَحَقَّقَ قَوْلُهُمْ . فَٱلمِئاتُ بَلِ ٱلآلافُ مِنَ ٱلأَفْيالِ قَدْ ماتَتْ هُنا . وَهاهِيَ ذي جُثَثُها تُغَطّي ٱلأَرْضَ .

أَحاطَتْ بي ٱلأَفْيالُ وَعُيونُها جَميعًا مُصَوَّبَةٌ نَحْوي ، وَلٰكِنْ لَمْ يَمَسَّني أَحَدُها بِسُوءٍ . وَكانَتْ عُيونُها هِيَ ٱلَّتي تُحَدِّثُني ، وَلَوْ كانَتْ لَها ٱلمَقْدِرَةُ على ٱلكَلامِ لَقالَتْ لي : « لِمَ تُطْلِقونَ ٱلسِّهامَ عَلَيْنا مِنْ أَجْلِ أَنْيابِنا ؟ ٱنْظُرْ حَوْلَكَ . ماذا تَرى ؟ طَبْعًا ، تَرى ٱلأَنْيابَ ، وَهٰذِهِ ٱلأَنْيابُ لَسْنا بِحاجَةٍ إلَيْها . هَيّا خُذْ مِنْها ما تَشاءُ وَقُلْ لِأَهْلِ ٱلمَدينَةِ أَنْ يَكُفّوا عَنْ قَتْلِنا . »

وَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَجْعَلَها تَفْهَمُ أَنّي مُدْرِكٌ قَصْدَها . قامَتِ ٱلأَفْيالُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِإِرْشادي إلى طَريقِ ٱلعَوْدَةِ إلى ٱلمَدينَةِ . وَفي ٱليَوْمِ ٱلتّالي ٱصْطَحَبْتُ ٱلتّاجِرَ إلى مَقْبَرَةِ ٱلأَفْيالِ . وَهُناكَ نَظَرَ حَوْلَهُ وَنَظَرَ ، ثُمَّ قالَ لي : « في هٰذِهِ ٱلمَقْبَرَةِ مِنَ ٱلأَنْيابِ ما يَشْغَلُ تُجّارَ ٱلمَدينَةِ مِئَةَ سَنَةٍ . » وَتَوَقَّفَ سُكّانُ ٱلجَزيرَةِ ، بَعْدَئِذٍ ، عَنْ صَيْدِ ٱلأَفْيالِ .

وَقَدْ مَلَأُوا لي سَفينَةً بِأَنْيابِ ٱلأَفْيالِ كَيْ أَبيعَها في ٱلبَصْرَةِ وَبَغْدادَ ، ثُمَّ أَبْحَرْتُ إلى وَطَني ، وَكانَتْ هِيَ ٱلرِّحْلَةَ ٱلأَخيرَةَ مِنْ رِحْلاتي .

مُغامَرات

السِّنْدبادِ البَحْري

المغامرات المثيرة

١ ــ مغامرة في الأدغال
٢ ــ مغامرة في الفضاء
٣ ــ مغامرة أسيرين
٤ ــ مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ ــ مغامرة على الشاطىء
٦ ــ الجاسوس الطائر
٧ ــ لصوص الطريق
٨ ــ حمد الغواص الشجاع
٩ ــ اللصان الغبيان
١٠ ــ مطاردة لصوص السيارات
١١ ــ مغامرات السندباد البحري
١٢ ــ لعبة خطرة
١٣ ــ الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤ ــ اللؤلؤة السوداء
١٥ ــ سر الجزيرة

L.1500

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 211

عرب كوميكس
www.arabcomics.net